احتــراق الفراشات

احتراق الفراشات

رواية

د. سليمان عوض

رقـــم الإيداع : ٢٠١٩/١١٧٢٣
الترقيم الدولى : 5-954-732-977-978

الطبعة الأولى

2019م

د. سليمان عوض

احتراق الفراشات

الفصل الأول

للمرة الأولى أجد نفسى صامتا أرتعد بينما كانت محدثتى كما لو كانت تقرأ من كتاب حفظته.

كان يطل من وجهها نور لا أراه ولكنه تملكنى.

تعودت طويلا أنّى من يتكلم وأمامى من يرتعد خوفا.

بحكم مهمتى كان لابد للحديث من تسجيل أعيده مرارا فى مكتبى الذى لا يعرف الكثير مكانه.

حين بدأت الكلام أعفيت من رافقنى من الرفقة وقد كان لدى إصرار على سماع كل حرف حتى لو قضيت أياما.

أحسست بخدر لم أعهده وكأن الدنيا قد فرغت إلا من محدثتى.

بمجرد جلوسى بجوارها كانت قد بدأت الحكاية غير ناظرة نحوي أو متسائلةً من أكون.

تربيت فى بيت متواضع فى واحدة من قرى الدلتا لأب كان يحفظ القرآن ويفتتح كتّابا فى القرية لتحفيظ القرآن إلى جانب دكان صغير هو حجرة من حجرات البيت يباع فيه أصناف قليلة كالشاى والسكر والسجائر والعسل الأسود، كانت تتولى أمى إدارته أحيانا الى جانب عملها بالبيت.

كان أبى متدينا لا يترك فرضا من الفروض، ولم يمنعه مرض أو انشغال عن الذهاب للمسجد.

وهكذا كانت أمى غير أن صلواتها كانت بالبيت لا تؤخر فرضا.

كنت أنا البنت الوحيدة لوالدى بعد أن توفى كل ما رزقهم الله به من أبناء فى سن الرضاع، وكان أبى صابرا حامدا قائلا لله ما أعطى، لله ما أخذ.

لست أدرى كم كان سنى حين تولى أبى تعليمى القراءة والكتابة وحفظ القرآن، ولكنى أذكر جيدا ذلك اليوم الذى التحقت فيه بالمدرسة فى الصف الأول الإبتدائى، أذكر جيدا أنى كنت أجيد القراءة والكتابة، وأذكر جيدا حين بدأ مدرسى يكتب على السبورة بعض الكلمات، كنت أعيدها بصوت مرتفع أدهشه، حتى أنه بدأ يكتب بعض الكلمات من باب الاختبار فكنت أول من ينطق ما يكتب.

كنت قد حفظت من القرآن الستة أجزاء الأخيرة، وكان والدى يصر على أن أكتبها بعد أن أتلوها.

لم تكن تمر مناسبة حتى يعلن أبى أنه يفتخر بى، وأن الله قد عوضه عن فقدان خمسة من أبنائه ذكورا وإناثا، وكان يطيب له اصطحابى.

لا أدرى لماذا كان يطيب لأبى أن يتحدث الفصحى وجملاً من القرآن، عندما أكون معه بمفردى.

كنت فى هذه السن المبكرة مشغولة الذهن بالله وبرسوله، حتى أنى كنت أتخيل أننى عندما أكبر يمكننى أن أكون من الأنبياء أو الرسل.

صارحت أبى ذات مرة بما يجول فى خاطرى، من أنى أتمنى أن أكون من أنبياء الله فابتسم ابتسامة خفيفة وقال:

-يابنيتى لقد كان محمد خاتم الأنبياء والرسل لا نبىّ بعده.

أحزننى حينها ما أخبرنى به أبى، ولكنه أردف بأن الإنسان الصالح سوف يكون مع الأنبياء فى الجنة.

عندما سألته يوما كيف أعرف الحلال والحرام ليرد ردا بسيطا وقال:

- كل ما يغضب الآخرين منك لو علموه فهو الحرام.

أذكر أيضا أنى صحوت من نومى ذات يوم مبتهجة، وجريت لحضن أبى وأنا أقول:

- لقد رأيت الله فى منامى يا أبى.

نظر إلى فى حيرة وهو يقول أن الله لا يُرى فى يقظة أو فى منام، ولكن قد تكونى رأيت الرسول يا بنيتى.

رددت فى تحدٍ:

- بل الله يا أبى.

حاول أبى أن يثنينى عما رآه هلاوس من فعل الشيطان وحاول أن يقنعنى بأنى رأيت الرسول.

-وإن كان ذلك يابنيتى فقد رأيته حقا ،لأن الشيطان لا يتمثل بهيئة الرسول!

-ولكن يا أبى كيف لا يتمثل الشيطان بهيئة الرسول ويتمثل بهيئة الله؟

كان إصرار أبى غريبا على أنى لم أرَ الله وإن تمنى أن أكون قد رأيت الرسول فى منامى.

كان لأبى رحلتان فى العام، رحلة للقاهرة حيث مولد

الحسين، ورحلة لطنطا حيث مولد السيد البدوى.

سألته يوما إن كان الحسين نبيا فضحك قائلا بأنه ابن بنت الرسول عليه الصلاة والسلام، وهو فى الجنة مع جده.

كنت أتخيل وجه الحسين وقامته كما أتمنى أن أراها، بيقين عندى أنى سأكون معه فى الجنة كما سبقنى إليه إخوتى.

أذكر أيضا أنى وقد أتممت حفظ القرآن الكريم، وأنا فى الصف الخامس من المدرسة الابتدائية، حين طلب منى الأستاذ عويس مدرس الفصل، أن أمر بكراستى على كل مدرسى المدرسة، ولم أكن أدرى لماذا؟ حتى كنت فى مواجهة ناظر المدرسة، الذى قبلنى وقال أننى بنت عبقرية.

لم أكن أعلم ما معنى عبقرية وقد أدرك الناظر أنى لم أفهم ما يعنى حتى قال:

- يعنى شاطرة.

حينها أدركت لماذا طلب منى الأستاذ عويس أن أمر بكراستى على جميع المدرسين، وحينها أيضا انتابنى كثير من الفخر وقليل من التعالى على أقرانى، وإن كنت أحرص أن لا يبدو منى ما يغضبهم، حتى لا أفعل الحرام وتضيع أمنيتى فى

الجنة، مع الأنبياء والرسل والحسين.

أذكر أيضا حين اقتحم بيتنا مدرس العلوم وأنا فى الصف السادس، جاذبا يدى بعنف وقد كنت متربة الوجه متسخة الثياب، وأركبنى خلفه على مقعد الدراجة الخلفى، حتى كنت فى الفصل، وقد كنت قد تغيبت فى ذلك اليوم لمساعدة والدتى فى بعض أعمال البيت.

أوقفنى الأستاذ عبد العليم ووجهى للسبورة، رافعة كلتا يدى الى أعلى حتى رأى ناظر المدرسة ما أنا عليه فاستنكر ما فعله الأستاذ عبد العليم، وسأله فى استغراب عما بدر منى، عرفت حينها أنى فى اختبار الشهر قد أخطأت فى جزء من مائة جزء، وأنه أعطانى تسعة وتسعين من مائة، وأنه يراهن على أنى لابد أن أحصل على الدرجة الكاملة فى امتحان القبول للمرحلة الإعدادية.

ربت الناظر على كتفى قائلا:

-كلنا نراهن عليك يا ابنتى!

وسمح لى بالرجوع للبيت حيث إنه لايصح أن أكمل يومى الدراسى وأنا متسخة الوجه والثياب.

عندما أعلنت نتيجة الامتحان لمسابقة القبول للمرحلة

الإعدادية – نتيجة امتحان الابتدائية – كنت قد حصلت على الدرجة النهائية، فى كل المواد عدا اللغة العربية، التى لم يكن يحصل فيها أحد على الدرجة الكاملة فى التعبير، وكان ترتيبى الأول على جميع مدارس المحافظة، الأمر الذى دعا الأهل والجيران والمدرسة للإحتفال بى.

كان أبى أكبر الفرحين، حتى أن دموع الفرح كانت تتساقط من عينيه كلما تقدم أحدهم لتهنئته.

أذكر أيضا أنه عندها ضمنى أبى لصدره بقوة سألنى عما أتمناه من مكافأة لى، كان ردى أنى أريد دراجة مثل دراجة الأستاذ عبد العليم.

احتار أبى فى الرد ثم نظر إلي بحنان وأسف معا وهو يقول :

-يابنتى الدراجة للأولاد ولا يصح أن تركب البنات الدراجة ، ثم ربت على ظهري قائلا سأشترى لك ساعة وأفضل الثياب.

***

كنت فى الإعدادية كما كنت فى الابتدائية محط أنظار الجميع، معلمين وزملاء.

لم أكن على وعي كامل بالفرق بين الأولاد والبنات إلا من

ملابسهم، حتى جاء يوم وأنا فى الصف الثانى الإعدادي، حين أحسست بألم خفيف بصدرى وتورم بناحية منه.

حين انتابنى اليأس من زوال الألم والتورم، شكوت لوالدتى التى تحسست صدرى ،وابتسمت قائلة :

- أنت بدأت البلوغ يا حبيبتى وغدا سيكون لك صدر مثل صدرى.

للمرة الأولى أتفحص بنظرى صدر أمى، وأقارن فى نفسى بين صدر أمى وصدر أبى، وأدركت كونى أنثى أختلف عن الأولاد، إذ أن الأولاد لن يكون لهم صدر، لأن أبى لا يمتلك صدرا مثل صدر أمى.

ماأن وصلت للسنة الثالثة الإعدادية، حتى كان صدرى قد امتلأ من الناحيتين، حتى بدا للناظر امتلاؤه ، كما بدت صدور كثير من زميلاتى، وبدأت أتلقى كثيرا من الإطراء على جمال وجهى وجسدى.

كان هذا الإطراء يبهجنى، وإن كنت أخجل من كثرته.

كان أبى كثير الحديث فى هذه الآونة، عن الزنا وعقوبة الزانى، وأن الزانى والزانية مأواهم النار، ولن يجاوروا الرسول أو الحسين فى الجنة.

لم أكن أدرى ما الزنا وكيف يكون، حتى كان يوم كنت أتدارس فيه مع إحدى زميلاتى، وحدثتها بما يحدثنى به أبى.

ولكم كانت دهشتى واستغرابى، حين أخبرتنى صديقتى أن للولد عضو بين فخذيه، ليس مثل أعضائنا، عضو بارز منه ويكون الزنا حين يلامس عضو الولد عضو البنت.

ولكن لمَ يلامس عضو الولد عضو البنت؟

حين سألتها ردت على بخبث وقالت :

- مش عارفة

أحضرت لى صديقتى فى اليوم التالى مجلة كانت تسمى(طبيبك الخاص)وأرشدتنى لموضوع عن غشاء البكارة.

عندما سألتها عن غشاء البكارة قالت :

-يا هبلة غشاء البكارة ده هو عرض البنت.

عرفت منها ماهو عرض البنت، وكيف أنه يتمزق إن مزقه رجل بعضوه، الذى لا يشبه أعضاءنا فسرت فى جسدى رعشة من الخوف.

أصبحت أتحاشى الأولاد خوفا من أن يفقدنى أحدهم عرضى، حينها لن أكون فى الجنة مع الرسول أو الحسين.

كان إطراء مدرسى- الذى كنت أتدارس على يديه مادة اللغة الإنجليزية فى بيته، مع مجموعة من صديقاتى كثيرا، وكان يقول أنى أجمل الجميلات.

بعد أن انتهينا من الدرس فى أحد الأيام، وجدت صديقتى عايدة تأخذنى بعيدا عن البنات الأخريات لتقول:

-خلى بالك من الأستاذ شحاتة!

عندما سألتها ماذا تعنى قالت :

- يا هبلة انت مش واخده بالك من بنطلونه ازاى بيبقى منفوخ وهو بيبصلك ؟

انتابتنى قشعريرة لا أدرى لماذا، وظل فكرى معلقا بما قالته عايدة، وعزمت ألا أذهب للأستاذ شحاته بعد اليوم.

عندما أخبرت والدى عن نيتى عدم الذهاب للأستاذ شحاتة لم يسألنى عن السبب، ولكنه أخذنى فى أحضانه وقال:

- خلى بالك يا حبيبتى من نفسك، انت كبرتى وبقيتى عروسة، مفيش فى البلد كلها بنت فى جمالك.

أخذنى أبى لمُدرِّسة تكون بديلا عن الأستاذ شحاتة.

كان إطراء أبى عن جمالى، وتذكرى إطراء الأستاذ شحاتة وهو يصفنى بأنى أجمل الجميلات، محركا فى نفسى رغبة فى استكشاف جسدى أمام المرآة.

كان تفحص وجهى فى المرآة هذه المرة ليس ككل المرات التى أنظر فيها لوجهى، كنت أنظر لأتبين مواطن الجمال فيه، مدفوعة بوصف الأستاذ شحاتة، ووصف أبى لى بأنى أجمل الجميلات، أنظر لوجهى الذى يبدو أكثر بياضا وصفاءً من زميلاتى، وابتسمت أمام المرآة لأرى اختلاف ابتسامتى، عما يبدو من زميلاتى حين تبدو منهن ابتسامة وحمدت الله.

حينها تذكرت رؤية الله فى منامى، الرؤية التى أنكرها أبى، وقلت فى نفسى أن الله لابد أحبنى أكثر من كل من عرفت، فلقد أعطانى جمالا يتغزل به حتى أقرانى، وجاءنى فى منامى وهو لا يزور أحدا فى المنام، ثم أحسست براحة وغبطة، وقلت لنفسى لابد أنى سأكون مع الرسول فى الجنة ومع الحسين.

لم أجرؤ أبدا أن أنظر لجسدى - فى المرآة- عاريا أو شبه عارى، فأنا أعلم أن الحياء من الإيمان هكذا علمنى أبى.

كانت الشهادة الإعدادية وقد تفوقت على كل أقرانى، بل كنت الأولى على جميع مدارس الإدارة التى تتبعها مدرستى.

حين سألنى والدى عما يمكن أن يقدمه لى هدية لنجاحى،

قلت أنى أريد دراجة.

تغير وجه أبى ورد والحسرة تبدو فى قسماته :

-العجلة ما تنفعش للبنات يا حبيبتى لكن هجيب لك أحلى لبس.

تمنيت حينها لو أنى خلقت ولدا، ولكن لماذا لا تصلح الدراجة للبنات وتصلح للأولاد ؟

كنت مدفوعة برغبتى فى ركوب الدراجة حين سألت أبى، هل ركوب الدراجة حرام ؟

رد أبى بحيرة وقال :

- لا يا حبيبتى مش حرام لكن عاداتنا وتقاليدنا كدهّ!

ماهى العادات والتقاليد؟، ومن جعلها عادات وتقاليد؟ وهى ليست محرمة! أعلم أن سلوكنا لابد أنه نابع من حلال وحرام، فكيف تختلف العادات والتقاليد مع إرادة الله، فيما حلل أو حرم ؟.

ولكنى لابد لى أن أطيع والدى، فهو الذى يعرف كل شىء ينفع أو يضر، وهو الذى لا تخفى عنه خافية من أمور الدنيا والدين.

لم يكن قد تطرق إلى ذهنى ما يسمونه الحب، أو العلاقة التى تجمع الولد والبنت، كل ما كان يشغلنى هو ما تحتويه كتبى، اتلقف كلماتها تلقف العاشق الولهان.

كانت الكلمات تطمئن فى رأسى اطمئنان من يسكن بيته وحديقته، لم أجد يوما صعوبة فى فهم ما فيها

***

كانت المدرسة الثانوية تبعد عن بيتنا ما يقرب من الكيلومترات الثلاث ، لم تكن هذه المسافة ترهقنى اليها ذهابا وايابا يوميا.

كانت عينى دائمة النظر إلى قدمى، حتى كأنى أصبحت أعرف فى طريقى كل حجر بل كل حصاة أثناء سيرى، بينما ترتفع قامتى فقط إلى السبورة وإلى يد المدرس أو المدرسة.

كانت كلمات المديح لا تتوقف عن مسامعى فى البيت وفى الطريق وفى المدرسة.

كان المدرسون والمدرسات لا يكلون من مديح ذكائى وفطنتى، بينما كان الشباب على طول الطريق، يمدحون جمالى أحيانا وأدبى أحيانا أخرى، بينما تظل عيناى تتابع وقع أقدامى.

كنا على وشك إنهاء العام الدراسى الأول فى المدرسة الثانوية، وكنا عائدين بعد يوم دراسى، ترافقنى عايدة ، حين وجدتها بجدبة تقطع ما كنا نتكلم فيه عن الدرس والدراسة لتقول:

-إيمان أنا عاوزه أقولك حاجة !

صمتَت برهة ثم قالت:

- أخويا بهاء بيحبك ومش بيبطل يسأل عنك.

-أخوكى التوأم يا عايدة ؟

-أيوه يا إيمان انت عارفة انه شاطر زيك.

ثم مقهقهة وهى تقول :

- واهبل كمان زيك.

ثم استدركت:

- قصدى طيب كده زيك.

- بيحبنى عشان أنا صاحبتك وبحبك يا عايدة ؟

-لا، أكتر شوية يا إيمان !

- يعنى ايه يا عايدة ؟

- يعنى عاوز لما يكبر يتجوزك، وتعيشوا مع بعض زى أبوكى وأمك ماهم عايشين مع بعض.

وكأن فمى قد أقفل بالأقفال الثقيلة، فلم أعد قادرة على الكلام، واستمر صمتى إلى أن وصلت بيتى.

لم تعد الكتب والدراسة هى كل ما أفكر فيه، فلقد انشغل ذهنى بكلمات عايدة عن أخيها، الذى لم أرَ وجهه وان كنت قد قابلته مرات حين أذهب لبيت عايده.

كنت أسمع صوته ولا أراه، ليقين زرعَته فى نفسى وصايا أبى، أن الشيطان يأتى من نظرة محدقة بين ولد وبنت، أو بين الذكر والأنثى وكان يلح على حديث عن النبى كان أبى يردده دائما " ما اجتمع رجل وامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما "

كنت أكره الشيطان ولكنى لم أتخيله فى صورة من الصور، كنت أعلم أنه هذا الشىء الذى سوف يحاول أن يبعدنى عن رفقة الرسول والحسين فى الجنة.

كنت أظن أنى أحارب الشيطان كراهية ،وأنا لا أراه ولا أتحسسه ولا أسمع له صوتا، هو كما قال أبى يسكن كل نفس، يوسوس لها بالسوء دون أن نراه.

كانت المرة الوحيدة التى أحسست بوجوده فى نفسى، حين

انتابنى شىء من الغبطة، وأنا أقرأ قصة طه حسين –على هامش السيرة – حين قرأت أن ملائكة نزلن من السماء فشققن صدر الرسول وغسلنه، حتى لا يبقى فيه شىء من كفر أو حقد.

حينها تمنيت أن تنزل علىّ الملائكة ليكون قلبى مثل قلب الرسول، ألا يستحق قلبى مثل ما استحق قلب الرسول ؟

عبثا حاولت أن أصرف ذهنى عن حديث عايدة، وعن تخيلى لبهاء الذى ملأ نفسى كلها صوته المفعم بالطيبة والخجل، مع وقع جميل على أذنى.

لا أدرى كيف تسرب الشيطان إلي ثانية وأغوانى بالتلصص على باب بهاء، الذى لم يكن يبعد كثيرا عن بيتى حتى أراه دون أن يرانى.

كان وقع رؤيته على نفسى راحة لم أعهدها، وبهجة لم أعرف مصدرها، حتى أغوانى الشيطان مرة أخرى أن أتلصص حتى أراه خارجا من المسجد بعد صلاة العصر متأبطا يد أبى !

لم أكد ألقى جسدى على سريرى فى هذه الليلة، حتى تخيلت الشيطان وهو يوسوس لى بالتلصص حتى أرى بهاء ، نعم إنه الشيطان!

جرت دموعى منهمرة، وجاهدت أن لا يصل صوت بكائى لمن حولى، فلقد غلبنى الشيطان وأنا الذى كنت أظن أنى بمأمن منه.

لم أدرِ كم من الوقت مر قبل أن يغلبنى النوم، ولكنى أذكر أنى صحوت من النوم ما بين بهجة واندهاش، فلقد تراءى لى الله مرة أخرى على نفس الهيئة التى تراءى لى وأنا طفلة.

خفت أن أخبر والدى بما رأيت، فأنا أعلم ما سوف يقول، ولكنى وجدت نفسى وقد تبدد مافيها من خوف وفزع، ولم أكن أعبأ بهذا الشيطان، فلعلى لم أفعل ما يغضب ربى وإلا لما أتانى فى هذه الليلة.

أصبحت أطيل النظر فى المرآة، أتكشف مابى من حسن قد راق لبهاء، وأصبحت أتحسس جسدى كثيرا، كما كانت تطوف بمخيلتى صورة بهاء.

لم أشأ أن أخبر عايدة بما فعلت، وإن كنت أتمنى أن تحدثنى عنه بين الفينة والفينة.

***

كنت فى السنة الثانية من مرحلة الدراسة الثانوية، حين وجدت ورقة مطوية دست فى حقيبتى، تفوح من طياتها رائحة

عطر فواح ، فتحت طياتها برهبة وترقب ،لأجد فيها كلمات

(لست أدرى ما يدفعنى للكتابة إليك، ولكنه شىء بداخلى لا أستطيع تسميته، شىء غلب فى نفسى كل خوفى وكل ترددى وخجلى، شىء غلب فى نفسى كل خوف من أن يضايقك ما أكتب، فأنا لست بالشاعر الذى يجيد تنسيق الكلمات، ولست بالأديب الذى ينسج قصصا من خيال، كل ما أود قوله أنى أتمنى أن تكونى رفيقتى ما امتدت حياتى، إن تعذر اجتماع جسدينا لصغر أعمارنا، فلتقبلى روحى ضيفا عليك ، ضيفا قد لا تبصرينه، وقد لا تسمعين له صوتا، ولكنه موجود لديك فلتستدعيه متى شئت)

الإمضاء/ بهاء

مرت لحظات لم أكن قادرة على استيعاب وقع الكلمات ، قرأتها مرة أخرى ومرات، وجال بخاطرى حين تذكرت الشيطان أن أتخلص من الورقة، ولكن شيئًا كان أكبر من خوفى من الشيطان، جعلنى أحتفظ بالورقة فى شق من جدار بيتنا، أحج اليه كثيرا ولا أقوى على تصفحها، فلقد كانت الكلمات قد حفرت بذاتى.

لم أقوَ على مصارحة عايدة، فلعلها هى من دست الورقة بحقيبتى، وتظاهرت بأن شيئا لم يحدث.

كنت دائما أفتش حقيبتى علها تحمل ورقة أخرى أو أوراقًا، وكنت أتلصص من بعيد علي أجد بهاء ذاهبا إلى المسجد أو خارجا منه.

كنت ألجأ إلى حضن أبى وكلمات أبى، تعيد إلي بعضا من سكينة نفسى، ويأتينى وجه أبى وكأنه وجه بهاء، كما كنت أتخيل وجه بهاء كوجه أبى.

كانت كلمات الغزل والإطراء تتطاير من حولى، من شباب أو كهول، ولكنى لم أكن أعيرها اهتماما، ولا جال بخاطرى أن أنظر من يقول الكلمات.

ظللت على تفوقى رغم انشغال نفسى، فلم أكن ممن يحتاج لكثير من الدرس حتى أستوعب ما أدرسه، فكنت الأولى أيضا حين ظهرت نتيجة امتحان السنة الثانية.

***

فى السنة الثالثة والأخيرة من المرحلة الثانوية، بدأ شىء من الهزال يبدو على جسد أبى، ولكنه لا يتألم، وكنت أراه يجاهد فى حركته حتى يصل إلى المسجد.

كنت دائمة السؤال له عما به، فيجاهد حتى يبدو مبتسما ويقول :

- أنا بخير يا حبيبتى خلى بالك من دروسك ، عايزك زى ما انت كل الناس بتحسدنى عليكى!

كانت كلمات أبى حافزا لى لمتابعة دروسى.

حتى جاء يوم وجدت طرقا بالباب.

ما أن انفتح جزء من الباب حتى أطل علىّ وجه بهاء، وكأنى أراه للمرة الأولى، وكان يتأبط خصر أبى ثم قال متلعثما:

-آسف والدك وقع فى المسجد اضطريت انى أسنده.

كانت لهفتى على أبى كافية أن لا أخاطب بهاء، وأنا التى كنت أتمنى فى نفسى مخاطبته.

تخلف أبى أسبوعا عن الذهاب للمسجد، ولكنه لا يتألم ولا تبدو منه شكوى، وكنت أرى أمى ملاصقة له طول الوقت، حتى أن دكانها الصغير قد أغلق، وأفرغ الكتاب من المترددين عليه.

كثر المترددون على البيت من الأقارب والجيران، حاملين مالم يكونوا قد اعتادوا على حمله، من خبز وأرز وسكر، وجبن ولبن، ما أن تفرغ حجرة والدى حتى تمتلىء بالزائرين.

أسبوع مر على احتجاب أبى عن المسجد حين كان بهاء

بالبيت مرة أخرى، وقد اصطحب طبيب الوحدة الصحية لمناظرة أبى.

قابلته بتلهف جاهدت أن لا يلحظه وجاهد بهاء فى أن ينظر إلى قدميه.

حين خرج بهاء مصطحبا الطبيب، لم يكن من الصعب اكتشاف عينيه وقد امتلأت بدموع حاول أن يخفيها، ماسحا عينيه بكلتا كفيه.

ما أن خرج بهاء مع الطبيب حتى جريت متلهفة إلى حجرة أبى ثم سألت أمى :

-أبويا ماله يامه ؟

- مفيش يا إيمان دول شوية برد وها يروحوا، خلى بالك انت يا حبيبتى من مذاكرتك !

لم تكن إجابة أمى لتقنعنى، فانشغل فكرى كثيرا بما آل إليه حال أبى، وظلت دموع بهاء تتراءى أمام عينى، وكأننى للتو أبصرها.

انتهت امتحانات الثانوية، ولم أكن راضية تمام الرضا عن أدائى، وأصبح لدى الوقت لأرافق أبى ليلا ونهارا، لا أبرح حجرته إلا لشىء قد أحضره من إحدى الغرف، لمساعدة أمى

فى العناية به وبنظافته، فلم يعد قادرا على مخاطبتنا بغير كلمة آه.

كثر تردد بهاء منفردا تارة، وبمصاحبة أحد من أهله تارة أخرى، وكنت أراه يبكى إن جاء وإن راح، وكان بكاؤه يستحث الدموع من عينى فتنهمر انهمارا، حتى كان اليوم الذى ذهب فيه أبى إلى حيث طال اشتياقه ولم يعد.

***

كانت نتيجة الإمتحان وقد تركنى المركز الأول بين أقرانى وذهب لبهاء ولكنى مع ذلك كنت قادرة على الالتحاق بكلية الطب.

أقفل الدكان الصغير، ولم تعد أمى قادرة على رعايته، وقد انشغلت بالعمل فى الحقول طوال اليوم وهو عمل لم تعهده، وفى البيوت أحيانا لتوفر لنا ما كان يوفره أبى.

كانت مؤلمة لى رؤية أمى، وهى تغيب النهار كله وجزء من الليل، وأنا أنتظرها لتأتى شاكية من آلام فى الظهر أو السيقان.

عرضت عليها أن أتحمل عنها بعض من شقائها، ولكنها نهرتنى قائلة :

- إنت عايزة أبوكى الله يرحمه يزعل منى يا ايمان !

لم تكن الدراسة قد بدأت حين أتت إلي والدتى مقبلة فى حنو، وبعد تردد أخبرتنى أن إبراهيم ابن الحاج إسماعيل قد تقدم لخطبتى.

قبل أن أقاطع أمى بالرفض- لرغبتى فى إكمال دراستى ولم يبق على الذهاب للجامعة إلا أيام- حتى قالت:

- يابنتى انت عارفة إن الحاج إسماعيل راجل ميسور، وإبراهيم ابنه فى كلية الطب، وهيتخرج وهيبقى دكتور، وأنا اشترطت عليهم إنهم يكملوا تعليمك.

ثم باكية قالت:

-أنا يا حبيبتى بشتغل ليل ونهار، وبالعافية بقدر أوفر لقمتى ولقمتك.

انكفأت على نفسى فى حجرتى، أبكى ويطل على من خلال الدموع وجه بهاء، وقد كنت قد بنيت أحلامى برفقته.

لم تمض غير أيام قليلة، وقد اشتعل البيت بأضواء المصابيح الكثيرة، وقد أتت سيدة من القرية لتعمل لى زينتى.

كنت أنظر للسيدة وكأنها قد جاءت لغسلى- كما جاء رجل

فى يوم لم يمر عليه كثيرا لغسل والدى- ولكنى كنت صامتة لا حول لى ولا قوة.

كنت أنظر للفراشات حين يبهرها ضوء المصابيح فتقترب حتى تحترق، فيتملكنى الخوف والكآبة.

فى ليلة عرسى اختلطت أصوات النسوة وصورة احتراق الفراشات، وهن يبحثن عن الضوء، فكأن زغاريدهن صويت وعويل وأنا أساق إلى بيت غير بيتى وإلى رجل غير أبى.

الفصل الثانى

أغلق علي باب حجرة فسيحة وانصرف من صحبنى، حتى دخل على إبراهيم وكان شابا خشن الوجه تبرز أسنانه من بين شفتيه.

كان طويل القامة عريض الجسم، على غير الصورة التى كان عليها بهاء، وكنت لم أره حتى اللحظة، دققت النظر فى وجهه، وقد انتابنى رعب.

تقدم إبراهيم منى بخطوات أفزعتنى، وهو يحاول نزع ثيابى، فوجدت نفسى أصرخ حتى أتى كل من فى البيت، ولم أتوقف عن الصراخ حتى أتت أمى فارتميت على صدرها أنشد الطمأنينة.

ربتت أمى على ظهرى قليلا ثم قالت :

- يابنتى إبراهيم بقى جوزك من حقه يعمل اللى هوا عاوزه، سيبيه عشان تخلفوا عيال، يبقى هو أبوهم وانت أمهم دى إرادة ربنا يابنتى !

ظلت أمى بجانبى إلى أن اقتحم الغرفة نسوة أشداء،

وكأنهن ذئاب جائعات أتين لافتراسى، والتفت ايديهن الغليظة حولى من كل جانب، حتى كأنى لا أستطيع التقاط الهواء، وقد امتدت يد لتغلق فمى، حتى لا أقوى على الصراخ، ثم دخل إبراهيم وقد طالت أسنانه خارجة من فمه، وكأنه وحش من وحوش الأساطير، وقد امتدت مخالبه، وكأنها المزراة التى يستخدمها الفلاحون لتقليب الحصاد بعد درسه، ممسكا بقطعة من قماش ولم أدر بعد ذلك شيئًا حتى كنت فى المستشفى الأميرى، وقد تم تقييدى بالسرير وقارورة من دم اخترق ما يتدلى منها يدى.

كنت أتمنى أن لا أغادر المستشفى، وكانت الوخزات الكثيرة لا تخيفنى، بعد ما عانيت الرعب فى ليلة عرسى، وقد ضاق علىّ بيت أمى بعد أن راح أبى .

كانت العودة لبيت زوجى أساق إليها كما تساق البهائم إلى حيث المذبح، أقدم رجلا وأؤخر أخرى متعللة بالبحث عن أشياء لا وجود لها، أو انتظارا لطبيب لن يأتى.

فى طريق عودتى، كان لابد أن أمر على بيت بهاء، كنت أتمنى أن أراه ولو من بعيد، وكانت تنازعنى رغبتى بأن يطول الطريق حتى لا يفترسنى إبراهيم، ورغبة أن يقصر حتى أمر على بيت بهاء.

عندما اقتربت من بيت بهاء أصابنى ضيق فى صدرى وانقباضة كدت أصرخ من هولها، عندما وجدت نساءً اتشحن بالسواد متسربين من بيته.

ترددت كثيرا أن أتبين الأمر، وكان معنا الحاج إسماعيل والد زوجى.

عندما خلت الحجرة إلا من والدتى سألتها بتردد:

-هوا فيه حد توفى فى بيت عايدة صاحبتى ؟

ردت أمى بإجابة مقتضبة : بهاء أخوها تعيشى انتِ

خرجت منى صرخة وكأن روحى خرجت معها، صرخةٌ تجمَّع لها كل من فى البيت.

سارعت أمى لتفسير صرختى، على أن الجرح مازال يؤلمنى.

ظللت على صمتى ثلاثة أيام، وأنا لا أفكر إلا فى بهاء، غير مصدقة أنه راح يتأبط ذراع أبى، كما كان دائما يتأبطه ذاهبا للمسجد أو خارجا منه.

كنت أتمنى أن ألحق أبى وبهاء، إذ لم يبق لى غير أمٍّ لا حول لها ولا قوة، وهذا الوحش الذى أخافه وأتمنى أن لا أراه.

قفز إلى ذهنى الورقة المطوية فى شق الجدار وتسارعت

كلماتها إلى رأسى.

(فلتقبلى روحى ضيفا عليك ، ضيفا قد لا تبصرينه وقد لا تسمعين له صوتا، ولكنه موجود لديك فلتستدعيه متى شئت).

كانت روح بهاء تلبسنى وقد امتلكت كل حواسى، لقد راح بهاء وترك لى روحا تملكنى ولا أراها، تهدهدنى ولا أتلمسها، فكأنه كان يعلم أنه لا يملك إلا روحا ائتمننى عليها.

فكرت كثيرا فى الانتحار، ولكن طيف الجنة والرسول والحسين كان يمنعنى، فلقد قيل لى يوما أن المنتحر كافر لا يرد الجنة ولا يشم ريحها.

قضيت أياما تغمرنى روح بهاء، أراه وأتخيل وجهه وقوامه، وأتخيله فى الجنة قد سبقنى ليجهز لى يوم عرسى هناك، بعد أن استحال اجتماعنا فى هذه الدنيا.

عندما عاودنى الوحش القبيح، طالبا منى التجرد من ملابسى، أغمضت عينى واستحضرت روح بهاء ووجه بهاء فاستريح،ثم أفتح عينى فيتلبسنى الشيطان كارهة ما كان يطلب منى أن أفعل.

***

كان موعد بداية العام الدراسى، وقد كانت أمي أخبرتنى بأن هناك اتفاق على إكمال دراستى.

عندما أتانى إبراهيم فى الليل فاتحته فى أمر ذهابى للجامعة، برفقته فهو طالب فى كلية الطب فى السنوات الأخيرة، وفى نفس الكلية التى قبلت فيها أوراقى.

لم أكد أكمل حديثى إذا بصفعة على وجهى ألقتنى أرضا، وقد اشتعل فى عينى برق وفى أذنى رعد، وكأن القيامة قد أرعدت وزمجرت.

لم أدركم مر قبل أن أسمع كلماته وهو يقول متهكما :

- كلية إيه يابنت الكلب ؟عايزة تروحى الكلية عشان الأولاد يشوفوكى، ومين عارف يمكن تصاحبيهم ، إنت هنا ليا أنا بس فاهمة؟ ليا وبس !

انزويت فى ركن من أركان الحجرة لست قادرة على البكاء، وكلى خيبة أمل وغضب ، لم يعد بعد الآن ما يدعو أبى للفخر، ولم يعد ما يراهن عليه أساتذتى الذين راهنوا دائما على تفوقى ، الآن فقط أصبحت جارية هذا الوحش القبيح.

كان حلمى بالذهاب للكلية عظيما، جعلنى عند الصباح

أذهب ذليلة كسيرة للحاج إسماعيل أرجوه أن يقنع ابنه بالموافقة على الذهاب للجامعة.

وكم كانت خيبة أملى كبيرة حين وجدته يتكلم باستهزاء :

-كلية إيه يابنتي ؟ البنت ملهاش إلا بيت جوزها، مفيش كليات ولا حتى خروج من البيت ، وكمان إنت من النهارده هتشاركى حماتك فى حلب البهايم، وتنظيف الزريبة زيك زيها ، الجامعة حرام واحنا مانرضاش الحرام فى بيتنا، مانرضاش إن نسوانا تروح مع الصبيان والرجالة ان كان فى جامعة ولا غيره!

***

كانت كراهيتى لإبراهيم زوجى تكبر كل يوم، ولكنى خوفا ورهبة استسلم لرغباته، وأنا كالجسد الموات، وطالت كراهيتى للبيت وما فيه، حتى أنى امتنعت عن الطعام والشراب لأيام، حتى أتت أمى باكية تلح على بالطعام والشراب الذى أحضرته معها، من بيتها، ولم يلح على أحد من بيت زوجى بطعام أو شراب، وكان إبراهيم يذهب الى حيث أمه وأبيه، يطعم مما يطعمون، وتولت أمى تدبير طعامى، ولم يكن يخاطبنى أبدا إلا حين تكون له رغبة فى تعذيبى، كانت كلمة واحدة يقولها بفظاظة :

- يلا يابت!

وأنا أستسلم تاركة جسدى يفعل فيه ما يشاء.

مرت أسابيع على موعد الدراسة المفترض، وأنا أتخيل الكلية وما يجرى فيها، والدراسة التى تمنيتها، وتبخرت أمانىً بعد موت أبى، ثم يجيئنى طيف بهاء، وقد حرمه القدر ما حرمنى، وان كان القدر أرحم به مني.

كنت طيلة يومى فى الزرائب الكثيرة التى تمتلئ بالبهائم والحمر، أنظف وأحلب، أعلف وأسقى، حتى يجىء الليل ليأتى زوجى يقول :

- يلا يا بت!

كنت أظن أن الدراسة إن بدأت قد ينشغل إبراهيم بالدرس والتحصيل والذهاب للكلية، ولكن مرت أسابيع ولم يحدث.

بعد تردد لأيام تجرأت على مخاطبته بالسؤال :

-انت مش بتروح الكلية ولا بتذاكر ليه ؟

فكان الجواب مسبوقا بصفعة على وجهى أسقطتنى أرضا ليقول :

- أنا لا بروح كلية ولا يلزمنى العلم الكافر.

لم يكن بإمكانى جدال ولا رد.

عندما اختفى من وجهى ظللت أفكر فيما قال –العلم الكافر– وهل هناك علم مؤمن وعلم كافر!

حيرتنى كلماته ولم تبرح ذهنى، وبدا لى أنى لابد أن أزور عايدة، فلقد التحقت بكلية الطب، مع أن مجموع درجاتها يقل كثيرا عما تحصلت عليه، ولكن كيف وأنا سجينة هذا البيت الكريه، لا يسمح لى بمغادرته، ولا أرى وجوها غير وجوه من فيه، مع البقر والجاموس والحمر، ولا أشم غير تلك الروائح الكريهة، متنقلة بين الزرائب وسيقان الحيوانات.

مرت أسابيع وأنا أقضى الليل إلا قليلا منه فى زنزانتى، التى اختارها لى زوجى، لا يقطع نومى إلا وصلة التعذيب التى أخافها ،حين يأتى إبراهيم ليقول :

-يلا يا بت!

وكأنه كابوس، وكأن هذه الزنزانة وكر للعفاريت أو الشياطين، لا تهدأ أصواتها ،ولا يختفى من قلبى رعبها، إلا حين أتذكر أبى أو بهاء،لأستغرق فى نوم حتى يكون آذان الفجر، لتبدأ من جديد صحبتى للزرائب والدواب.

كادت ظلمة أيامى تنسينى عايدة التى لم أرها منذ وفاة

أبى، لابد أنها تذهب للكلية التى حرمنى منها وحش كاسر ، وحش أفقدنى أبى وحلمى فى الكلية وفى بهاء.

كان لابد لى أن أعزيها وقد كانت أقرب الأصدقاء كما أنها أخت بهاء.

بهاء الذى ائتمننى روحه وأنا أستحضرها كل ليلة حتى يداعبنى النوم، وكان النوم هو كل ما يحنو على ويهدهدنى.

كان النوم يقص على ما يسرنى، حتى أنه كان يحضر لى أبى وبهاء لأحدثهما ويحدثوننى.

كيف لى أن أرى عايدة أو أن أعزيها، وأنا لا أعرف للباب طريقا، وقد حرمت من الخروج أو حتى النظر من خلال النوافذ العالية.

النوافذ ! ما ضرنى لو أنى تسلقت الأريكة، أنظر نظرة خاطفة على الشارع الذى طالما تأرجحت فيه ذهابا وإيابا، وقد كان يتسع لكل عواطفى ومرحى.

بعد تردد تسلقت الأريكة حين خفت الأصوات من حولى، لأشم ريح الشارع الذى تقت إليه، وكان يحتضن أبى وبهاء ذهابا وإيابا.

ما أن أطل من عينى شعاع على الشارع حتى رأيت عايدة.

كانت عايدة ترتدى ثوبا أسود وغطاءً أسود للرأس، رغم قتامته كان وجه عايدة وما ظهر من سيقانها كأعمدة الضياء، وكأنها حورية من الجنة.

سبق ترددى صوتى، أو كأنه استغاثة الغريق حين كنت أصيح:

-عايدة !عايدة!

كانت هرولة عايدة نحو النافذة كما كان صوتى، كانت تفر إلي متلهفة وكأن خلفها وحش تفر منه.

لم تكد عايدة تصل إلى الشرفة حتى كانت يد غليظة تطرحنى أرضا، ثم توسعنى ضربا وركلا.

كانت يد إبراهيم وقدماه.

بعد أن أفقت من الصراخ والعويل حتى تأملت فى نفسى عايدة، واختلطت فى راسى الصور فكأنى أرى بهاء فى هذا المنظر الملائكى الذى بدت لعينى به عايدة.

آه يا بهاء لقد تركت لى روحك تملأنى وتركت لى من دمائك هذا الكائن الملائكى !

ترى لم ذهبت يابهاء ولم يكن يبدو عليك علة أو مرض !

ألست قادرًا يابهاء أن تجعل روحك تنتزع روحى من هذا الجسد الذى يكبلنى، فى هذه الدار التى أكاد لا أرى فيها، غير وجه قبيح وأرجل الماشية!

الماشية ؟ كيف أنى لم أتبين حب الماشية لى، نعم إنها تحبنى، ألم تلحظي يا إيمان كيف تهدهدك الماشية، وتمسح رأسها بجسدك كلما دنوت منها، رغم ما تنتزعين منها من ألبانها مالا يعرف مصيره.

اختلطت الصور والأفكار، مازال هناك من يحبك، هل حلت روح بهاء فى قلوب الماشية كما حل بقلبى ؟وهل ترك بهاء شيئا من روحه فحل القليل منها فى روح عايدة وروح هذه الماشية.

لم أدر كيف حلت بنفسى السكينة ،وكأنى أرى من حولى من يتولى أمرى، ولو بالأحاسيس التى تبدو من نظرات العيون.

فى المساء وقبل أن تغرب الشمس ويحل الظلام كانت ورقة تطير إلي من النافذة العالية،كانت مطوية كما طويت ورقة بهاء التى أحتفظ بها فى جدار بيتنا، ولم أعد قادرة على الوصول إليها أو إعادة قراءتها.

جال فى خاطرى أنها هى، هى نفس الورقة عثر عليها أحدهم فرق حاله لى فقربها.

بيد مرتعشة أمسكت الورقة ولا أقوى على تبين ما فيها.

أمسكت بالورقة مشجعة نفسى على قراءتها مرة أخرى، فإذا بالباب يفتح بعنف، ليطل على الحاج إسماعيل ليقول فى صوت آمر غليظ :

- إنت قاعده ولا على بالك وسايبة البهايم من غير مية ولا علف!

- حاضر يا عم إسماعيل حاضر!

جاهدت فى إخفاء الورقة وقد غلفتها بغلاف سميك من ثيابى حتى لايراها إبراهيم ولا يشم ما يفوح منها من عطر.

كانت الماشية عطشى وجوعى ليس لغياب الماء والعلف، فقد كان أمامها الكثير، كانت عطشى وجوعى لوجودى بينهم، كنت أجد الماشية تومىء لى وكأنها تستجدينى أن أقترب.

أصبح لى فى هذا البيت الكئيب عائلة تنتظر وجودى بينهم، وتشتاق لرؤيتى، دون أن تخاطبنى أو تفصح عما تكنه نفسها.

حدثت نفسى أن يكون جل يومى بين سيقان عائلتى، وأحسست بريح طيبة تسرى فى أوصالى ، لعل الله وضع فى قلوبها ما وضعه فى حوت يونس أو فى نار إبراهيم عليهما

السلام.

كدت أنسى الورقة المطوية التى ما أن أطلت فى رأسى حتى نظرت للبهائم نظرة استئذان مهرولة إلى غرفتى.

اقتحمت الباب على عجل قاصدة ما كنت خبأته تحت فراش سريرى، فإذا بإبراهيم متربصا على السرير.

- خلصت الشغل فى الزرايب ؟

أومأت برأسى ولم أستطع الإجابة.

-طيب يلا !

استسلمت لما يريد ولم أحس بما يفعل وكأن كل أحاسيسى فى الورقة المطوية المخبأة.

لم يكن بإمكانى النوم، فلقد هجرنى النوم وكأنه لن يعود، بينما علا شخير زوجى بعد أن أفرغ ما به من شهوة، ولم يكن أمامى إلا أن التمس الطمأنينة فى إحدى الزرائب، متنقلة بين من أظن أنهم كل مالى فى هذا البيت.

كانت البهائم تنظر لى وكأنهم يدرون بحالتى ويتوسلون أن أريح جسدى، الذى مازال كل ما فيه يؤلمنى من قسوة ما لاقيت فى صباح اليوم الفائت.

استسلمت للنوم الذى غلبنى على كومة من القش فى الحظيرة.

جاءنى بهاء فى نومى وكان يلبس بالطو أبيض، وكأنه جاء ليطببنى ويزيل ما بى من ألم، نظرت اليه فى دهشة ولهفة وانا أجتر من جوفى الكلمات :

- إنت عايش يابهاء ؟ إنت اتخرجت إمتى ؟

- أنا عايش يا إيمان أنا غبت عنك بس عايش!

مددت يدى متلهفة لأمسك إحدى يديه حتى لا يغيب، حينها صحوت من نومى لأجدنى ممسكة بساق عنزة صغيرة، وهى تنظر لى ولا تحاول الهروب.

***

كانت أصوات المآذن قد علت بآذان الفجر، وكأنى أسمعها للمرة الأولى، أنصت للآذان وصوت الإمام حين تولى الدعاء (اللهم اهدنا فيمن هديت ،وتولنا فيمن توليت ،وعافنا فيمن عافيت،وقنا واصرف عنا شر ما قضيت).

كان الصوت يصل إلى مسامعى وكأنه صوت أبى ،آه كم اشتقت لحديثك يا أبى،اشتقت لرؤياك وحماك!

كان إبراهيم مازال يغط فى نومه حين دخلت متلصصة للغرفة، التى لولا الورقة التى أخفيتها فيها ما رجعت إليها، فلقد كان نومى فى حظيرة المواشى أكثر راحة وأسعد حلما.

ظللت أتقلب يمينا ويسارا وأنا نصف جالسة، فى انتظار يقظة إبراهيم.

لما طال انتظارى دفعته دفعا، متعللة بأنه لابد أن يقوم لصلاة الفجر.

كانت كف إبراهيم أقوى حين صفعنى على وجهى قائلا :

- نامى نامت عليكى حيطة !

لم يكن أمامى غير كومة القش ألقي بنفسى على صدرها، حتى ينزاح الكابوس من غرقتى.

***

أشرقت الشمس مبتهجة وكأنها تحدثنى أن إبراهيم لابد قد غادر الغرفة، فلقد اعتاد الحاج إسماعيل أن يوقظ ابراهيم حين عودته من صلاة الفجر،وقد كانت الفريضة الوحيدة التى أراه يذهب للمسجد فيها، فلقد كان جل يومه مسافرا الى المدينة أو جالسا مع تجار أتوه، لا أعلم ماذا يشترى أو يبيع.

تسللت إلى الغرفة أنظر حولى، والتفت خلفى وكأنى أخاف أن يرانى أحدهم داخلة الى غرفتى.

كانت الغرفة خالية حين أرسلت يدى ببطء، إلى حيث أخفيت الورقة وكأنى خائفة من الهواء أن يرانى.

ما كادت يدى تلمس الورقة حتى كان صوت الحاج إسماعيل عاليا وهو يقول :

- البهايم يا إيمان !

-أنا لسة جاية من عندهم ياعم إسماعيل.

-احلبيهم عشان تاجر اللبن قرب ييجى!

كان لابد لى أن أطيع أوامر الحاج إسماعيل، فقد كنت أرى إبراهيم لا يستطيع أن يؤجل له طلبا، وإن بدا منه همهمات غير مفهومة ولكنها تنم عن عدم الرضا.

عدت إلى غرفتى، وأنا أدعو الله أن لا يقطع خلوتى أحد، حتى أتبين مافى الورقة.

كانت أناملى وكأنها تهدهد الورقة قبل أن تفرد طياتها لأراها قد كتبت بنفس الحبر الذى كتبت به الورقة المخفية فى جدار بيت أبى.

(حبيبتى إيمان، ان غبت عنك بجسدى فإن روحى لم تغب، وإن كنت أعلم أن جسدى أمامك الآن ،جسد لن يتغير أو يشيب، كما أن روحى لن تتغير أو تشيب، تركتها معك وأنا أعلم أنك لن تتخلى عنها، كما أنها لن تغيب أو تتخلى عنك ،كنت تواقة لدراسة الطب كما كنت أتوق لما تتوقين إليه، ثقى أن روحى تملأ كل مكان تذهبين إليه، لقد أوعزت لعايدة أن تدفع لك مصاريف الجامعة، وأن تأتيك بكل ما تستطيع من دروس أو محاضرات، لن تتمكنى من تلقيها لغيابك، حبيبتى لا بد للحلم أن يكتمل)... بهاء

لم أكن مصدقة ما أرى وما أقرأ، وانهمرت من عينى الدموع حتى كادت أن تبلل الورقة.

كان حرصى على أن لا يزول الحبر جعلنى أطويها طيتها الأولى، ولكن حيرتى أين أخفيها كانت عظيمة، فلم يكن فى البيت من شقوق بالجدار فى مثل مأمن بيت أبى.

تناهى الى سمعى صوت إحدى البهائم وكأنها تنادينى، فلمع فى ذهنى أن الحظيرة ربما تكون أكثر أمنا وأمانا.

تلصصت ذاهبة الى الحظيرة مخبأة الورقة بين طيات ملابسى، حتى يكاد من يرانى يشك فى أنى أعد العدة لسرقة أو جريمة، وكأنى لست معتادة على الدخول إلى هذا المكان،

أنظر حولي وخلفى وتفزعنى حتى ملامسة النسيم لثوبى.

كانت البقرة التى أحدثت الصوت مازالت تكرره ناظرة إلي حين وطأت قدمى باب الحظيرة.

اتجهت إليها وأنا أنوى تقبيلها على أن هدتنى لمكان أستأمنه.

كانت يدى تمسح على رقبتها وقد سكت نداؤها حين لمحت فى الجدار شقا يشبه ما كان فى بيت أبى.

نظرت إلى سقف الحظيرة الذى يفصلنى عن السماء مناجية ربى، وحامدة له على رعايته وهداه.

وضعت الورقة وفوقها بعض من قش، وأوصدت الشق ببعض من طين مختلطٌ بروث البهائم، ثم تنهدت تنهيدة المستريح بعد عمل شاق، وارتميت على كومة القش وقد أسلمت جسدي وروحي إلى النوم.

***

كان نومى عميقا لست أدرى كم مر من الزمن، هل هى ساعات أو أيام استيقظت على يد ترفعنى بعنف، وصوت كأنه نفير قيام الساعة، ثم بلطمة على وجهى وركلة فى بطنى، طرحتنى مكومة على كومة القش

كانت صفعة الحاج إسماعيل وصوته الذى أتانى، وكأنه يأتى من بعيد وهو يسب ويلعن:

-يا بنت الكلب نايمة وسايبة البهايم جعانة !

- لم يكن لى صوت أرد، ولا عقل يفكر، ولم أذكر شيئا بعد ذلك، حتى صحوت وأنا فى المستشفى، على نفس السرير الذى استضافنى ليلة عرسى أو ربما يشبهه.

كان قد اختفى من ذاكرتى كل ما حدث إلا ليلة عرسى، وتخيلت أنى لم أزل أعالج من قسوة إبراهيم، والنسوة اللائى قيدننى، وكانت أمى هى الوحيدة التى تجلس بجوارى.

ما أن حاولت النطق مترددة، وكأن لسانى به ما يربطه عن الكلام ،حتى سمعت أمى والدموع تنهمر من مقلتيها وهى تقول:

-حمدا لله على سلامتك يابنتى.

ثم أردفت :

- سامحينى يابنتى مكنتش أعرف اللى هايجرى لك، إنت مالك وشغل الزرايب سامحينى!

حينما أتت أمى على ذكر الزرائب حتى تمثل لى كل شىء،

صوت البقرة ولطمة الحاج إسماعيل وركلته.

كنت أجاهد فى إيصال صوتى، وأنا أستوضح من أمى سبب مجيئى للمستشفى مرة أخرى، فعرفت أنى أصابنى نزف شديد من نطحة البقرة!

تمادت أمى فى وصف ما حدث للحاج إسماعيل :

- إنت مصيبتك أهون من مصيبة الحاج إسماعيل، دى البقرة نطحته وغرزت قرنها فى بطنه وطلعت مصارينه، وهوا يا كبدى بين الحيا والموت!

لم أشأ أن أحدث أمى عما حدث من الحاج اسماعيل، وتركتها على ظنها بأن ما أصابنى أصابنى بفعل البقرة، وعرفت منها أن إبراهيم مشغول بما حدث لأبيه قائلة :

-أعذريه يابنتى دا أبوه حالته خطرة!

***

فى المساء أهلت علي عايدة بنفس الملابس الملائكية، وإن كانت سوداء، يطل من وجهها نور أضاء كل جوانحى، حتى أنى انتفضت من سريرى لاحتضانها وبادلتنى تقبيلا بتقبيل، واختلطت دموعنا وصوت بكائنا.

كنت أنظر إليها غير مصدقة، وكانت تتفحص بعينيها ويديها كل ما فى جسدى، وتمسح على شعرى تارة وعلى وجهى تارة، وغلفنا الصمت طويلا حتى نطقت بحزن :

- حمدا لله على سلامتك يا إيمان !

- الله يسلمك يا عايدة وحشتينى!

- حبيبتى مش هطول عليكى، أنا سجلت اسمك فى الكلية ودفعت لك المصاريف، وجبت لك شرايط المحاضرات، أنا سجلتهم عشانك بس إنت لازم تحضرى، ولو مرة كل أسبوع لابد الدكاترة يشوفوكى يا حبيبتى.

باكية ومترددة

-مكانش له لزوم يا عايدة، أنا خلاص بقى نصيبى كده، ومكانش له لزوم تغرمى تمن المصاريف أنا نصيبى كده.

- حبيبتى مش أنا اللى بعمل !

ثم انهمرت الدموع من عينيها وعلا صوتها بالبكاء حتى احمرت عيناها ثم قالت :

-حبيبتى بهاء هو اللى عمل ده ، ادعيله يا إيمان !

هبت عايدة واقفة تستأذن للرحيل، وكأنها تهرب مما

يراودها من أحاسيس ثم استدركت قائلة :

- على فكرة يا إيمان أنا عندى جهاز تسجيل صغير، هجيبهولك تسمعى المحاضرات عليه، وهجيب لك المحاضرات مكتوبة. وهجيب لك قاموس عشان كل الدراسة بقت بالإنجليزى.

كانت روحى كأنما شدت بحبل مطاط تجذبه عايدة حين خروجها،ولكنه يأبى أن يدعها.

ظلت عينىً مترقبة الباب عل ما شدت به روحى، قادر أن يرد اليَّ عايدة ولكنها لم تعد.

ما أن تمالكت نفسى حتى كان وجه عايدة أمامى، هو وجه بهاء، كيف أنى لم ألحظ هذا الشبه بين وجه عايدة ووجه بهاء !

كان وجه عايدة هو هو وجه بهاء زاد عليه ما يميز الأنثى ولكنه وجه بهاء.

روحك يابهاء تحيطنى وكأنها الحارس الأمين، وأنا الذى لم أخاطبك ولم تخاطبنى، إلا بوريقات هى كل ما أملك من الحياة.

هل تركت روحك يابهاء لتسكن جسد عايدة، أم لتسكن

جسدى، أم أن روحك ذات أجنحة، تطير منى إلى عايدة وتعود ؟

ولكن روحك لا تفارقنى! ربما تكون روحك يابهاء كالفضاء، لا يحده حدود ولا يحوزه مكان !

هل حلت روحك فى البقرة التى عاقبت الحاج إسماعيل، والتى نادتنى وأرشدتنى كيف أخفى رسالتك.

لاشك عندى يابهاء أنك هناك، حيث أنبياء الله ورسله وحيث الحسين.

إن كان هذا هو مكانك فلم لا تدعونى إليك، اشتقت إليك يابهاء، أراك خارجا من المسجد أو ذاهبا إليه.

لم أرك يابهاء إلا متأبطا ذراع أبى فهل ذهبت يابهاء إلى حيث تتأبط ذراعه.

آه، اشتقت إليك يا أبى وأنا بعدك شاردة كطفل ضل طريقه!

***

فى صباح اليوم التالى أذن لى بالخروج ومغادرة المستشفى.

كنت هذه المرة على غير المرة السابقة، وأنا أغادر المستشفى كنت متلهفة للخروج، لأرى الشارع حيث كان يسير بهاء، وأرى بيت أبى الذى لم أره منذ أن انتقلت لبيت الحاج إسماعيل، وأزور الشق فى الجدار الذى أخبأت فيه رسالة بهاء الأولى، وأزور عايدة، وأطمئن على عائلتى التى تسكن حظائر الحاج إسماعيل.

آه عائلتى التى أحبتنى وأحببتها، من يسقيها ويطعمها، ويتلمس ضروعها وقد كنت الوحيدة التى أعتنى بها، منذ أمرنى الحاج إسماعيل وتولت زوجته تدريبى، على الحلب والعناية بها يومان أو ثلاثة أيام.

توارى كل شوق خلف شوقى للماشية فى حظائر الحاج إسماعيل، نعم إنهم أولى بالرعاية، فليكن اليوم الأول فى حظائر الحاج إسماعيل.

عندما أخبرتنى والدتى أنى لابد أن أقيم معها حتى يعود أهل الدار لديارهم، صرخت فى وجهها وأنا أقول:

- والبهايم يامه مين هيشوف طلباتها ؟

-مابقاش فيه بهايم يا إيمان البقرة اللى كانت السبب ذبحوها، وباقى البهايم باعوها، مفيش فى البيت غير راجل عجوز، جابوه يحرس البيت فى غيابهم.

أصابتنى حالة من جنون وأنا أصرخ:

- دول هما اللى كانوا لي فى البيت يامه باعوهم لمين وباعوهم فين ؟

كان إصرارى على الذهاب لبيت الحاج إسماعيل، غير مصدقة ما أخبرتنى به أمى، فلعل هناك من أخبرها بغير الحقيقة.

كنت أتخيل البهائم فى أماكنها تنتظرنى عطشى وأصابها الهزال، ولابد لى أن أتولاهم.

إصرار لم تستطع أمى منعه، وإن توسلت أن أنتظر أياما قليلة بجوارها، فأنا مازلت شاحبة هزيلة

استقبلنى العجوز بابتسامة بشوشه وهو يقول :

-حمدا لله على سلامتك يابنتى.

لم يكن بوسعى الرد فقد جريت مسرعة الى الحظيرة الأولى التى أخفيت فيها ورقة بهاء، كانت الحظائر خالية إلا من العناكب والسحالى.

انسحبت مهزومة ذليله بعد أن نظرت إلى الجدار، حيث كان الشق الذى آوى ورقة بهاء ،وحدثت نفسى بأنه مازال فى

هذا البيت ما يشدنى إليه.

***

استقبلتنى عايدة بحرارة المشتاق وقد كانت معى بالأمس، وطال ضمها لى وتقبيلى، كما طال ضمى لها وتقبيلها، وكانت قد أعدت لى جهاز التسجيل وبعض الشرائط، مسجل عليها بعض المحاضرات وبعض المذكرات، التى اشترت منها نسختين واحدة لها وواحدة لي.

ترجتنى عايدة أن أذهب معها للجامعة ولو لساعتين، لاستكمال الالتحاق وإجراء الكشف الطبى، الذى لابد منه لدخول الامتحان، وكانت قد أعدت لى من ملابسها، ما يليق بذهابى إلى الجامعة بديلا عن جلبابى، الذى لا يلبسه غير الفلاحات من أهل قريتى.

قبل أن أغادر سألتنى عايدة بتأثر:

-مش عايزة تشوفى مكتب بهاء وحجرته؟

سالت الدموع من عينى واختنق صوتى وبصوت خافت سألتها:

-إيه اللي جرى بهاء مات ليه يا عايدة ؟كان تعبان ؟

-حزنه عليكى يا إيمان هو كل المرض اللى جاله، مكانش بياكل ولا يشرب ولا نفع الدكاترة ولا المحاليل

كنت أضرب على صدرى وأنا أقول :

-يعنى أنا السبب يعنى أنا اللى قتلته ؟

لم يكن بإمكانى مصارحة والدتى بنيتى الذهاب للجامعة مع عايدة، ولم يكن بإمكانى ارتداء ما جهزته عايدة من لباس، ولكن كان لدى إصرار، لا يتزحزح على أن أذهب وأن أحقق لبهاء ما أراد.كنت أخفى وجهى بغطاء رأسى، وأنا أتابع خطوات عايدة إلى حيث السيارة التي ستنقلنى إلى الكلية، وقد أخبرت والدتى أنى ذاهبة لزيارة الحاج إسماعيل فى المستشفى.

فى دورة مياه خارج الكلية، أدخلتنى عايدة، لأبدل ملابسى وأرتدى ما أتت به.

اتجهت بى عايدة مباشرة إلى الوحدة الطبية الملحقة بالجامعة، لتوقيع الكشف الطبى، ثم الى مدرج الكلية لحضور إحدى المحاضرات.

***

كانت أعين الطلاب مشرئبة تجاهى، وقد أخجلتنى نظراتهم، فانكفأت عيناى ناظرة إلى مقدمة المقعد الذى أجلس عليه، أتسمع كلمات المحاضر، أفهم منها أشياء وتضيع أشياء، كانت المحاضرة عن تكوين الخلية الحيوانية، وكان المحاضر يردد بعد كل فقرة يشرحها(سبحان الله الخالق).

انشغل ذهنى لحظات وقد تخيلت بهاء يجلس جلستى، حتى أفاقنى وخز يد عايدة، تنبهى أن المحاضر يوجه لى الكلمات.

-انت يابنتى سرحانة ف ايه؟

تولت عايدة الرد :

-معلش يا دكتور عندها ظروف لو سمحتلى أبقى أحكيلك عليها.

-طيب مش تعرفنا اسمها وهى معانا فى الدفعة ولا مش معانا؟

- طبعا معانا يا دكتور، وبإذن الله هتكون من اللى حضرتك تفتخر بيهم فى الدفعة؟

-طيب أنا منتظركم فى مكتبى بعد المحاضرة !

وأنا فى خجلى أخذتنى عايدة من يدى إلى حيث مكتب المحاضر.

كانت غرفة متسعة ومكتب كبير أنيق، كل ما فيها نظيف ومرتب استقبلنا المحاضر فى ود وترحاب :

-طيب الأول قوليلى اسمك ايه ؟

بخجل قلت :

-إيمان.

- طيب إيه حكايتك ؟

- كادت دموع المحاضر تفضح تأثره بما حكت له عايدة، فوعدها أن يبذل ما يستطيع لمساعدتى

- بس هىَ لازم تحضر على الأقل العملى ياعايدة!

كانت كلمات المحاضر الودودة وكلمة سبحان الله الخالق ترن فى أذنى عندما سألتنى عايدة:

- تحبى تحضرى محاضرة تانية ولا هيحصل مشكلة؟

- هحضر كل المحاضرات يا عايدة ؟

***

كانت الشمس قد غربت حين عدت إلى بيت أمى، التى كانت قلقة متوترة، وقابلتنى بعنف فى حديثها وهى تسألنى :

- كنت فين ؟

- كنت فى الكلية يا مه!

- يا مصيبتى ده جوزك لو عرف هيطلقك!

- مش مهم يامة أنا هشتغل فى البيوت وأروح الكلية !

- شغل إيه شغل إيه، دانتى هتفضحينا وأبوكى مش هيستريح فى تربته !

- وهوا أبويا مستريح وكل اللى عمله عشانى بيضيع!

انكفأت أمى جالسة ورأسها بين ركبتيها ولم تتكلم لدقائق، ثم قالت:

- سامحينى يابنتى وخلى أبوكى يسامحنى !بس اوعدينى تنسى الكلية إنت فى بيت راجل واجب تسمعى كلامه!

كان لابد لى قبل أن آوى الى فراشى، أن أزور الشق فى جدار بيت أبى، حيث استأمنته على كلمات بهاء الأولى.

كانت ترن فى أذنى كلمات المحاضر وهو يقول سبحان الله الخالق، تليها كلمات إبراهيم عن العلم الكافر.

كان نومى هادئا وأحلامى ممتعة، وما زاد من امتاع نومى أنى رأيت الله للمرة الثالثة.

فى الأيام القليلة التالية وقد كنت أكثر فهما وتركيزا وإنصاتا للمحاضرات، رأيت أن كل ما أسمعه كان ينطق سبحان الله الخالق، إن نطقها المحاضر أم لم ينطق، ثم أتعجب من قول إبراهيم عن العلم الكافر!

***

مر ما يقرب من أسبوع على ذهابى للكلية وكان يوم خميس، وقد عدت مبكرة فلم يكن العصر قد أذن له بعد، حين طرقت الباب فلم ترد أمى.

بعد أن كلت يدى من طرق الباب استدرت، وكنت أنوى الذهاب لعايدة، لاحت لى والدتى وقد كانت خطواتها تتسارع نحوى.

قبل أن أسألها قالت:

- بسرعة البسى هدوم سودة وتعالى معايا ، الحاج إسماعيل مات.

تسمرت فى مكانى لحظة، وأنا أذكر البقرة وما فعلته، وسألت نفسى هل كان الحاج إسماعيل يموت لو لم تذبح

البقرة ؟

كان يشدنى إلى الذهاب ما ظننته واجب لا يمكننى إنكاره، وقد كان والد زوجى ، وفى بيته الورقة المخبأة فى جدار الجظيرة.

كنت أجلس بين النسوة حين انتابنى شىء من الغثيان، أتبعه قيء كاد أن يُذهب روحى، فالتفتت النسوة حولى، ثم ربتت على كتفى أم أبراهيم لتقول :

- روحى يابنتى استريحى باين عليكى حامل !

صحبتنى أمى خارجة إلى بيتها، حين قابلنى إبراهيم ليقول فى صوت غليظ :

- رايحة فين؟

ردت أمه وكانت تتبعنا :

- سيبها يا إبراهيم !

لم أكن أتمنى أن يكون ما أعانيه من أعراض الحمل، فلم أكن أرغب بما يزيد ارتباطى بإبراهيم، أو أن يشغلنى شىء عن الذهاب إلى الكلية وأنا أنوى التمرد على إبراهيم.

أتت حماتى فى اليوم التالى مصطحبة طبيب الوحدة

الصحية، الذى أخبرنى أن ما أعانيه ربما يكون من أعراض الحمل، وإن كان لا يستطيع التأكد فى هذا الوقت المبكر.

لم يكن الطبيب قد غادر حين اقتحم إبراهيم الحجرة، صائحا متوعدا وقد أمسك بتلابيب الطبيب:

-أنا مراتى ماتنكشفش على راجل كافر زيك!

قبل أن تطالنى يده كانت أمه تقف حائلا بينى وبينه صائحةً :

-إوعى تقرب لها! وده دكتور يافاشل، إمشى اطلع برة هوا يعنى أبوك مات مبقاش لك كبير!

انسحب إبراهيم مزمجرا ومتوعدا وكأنه كلب ألقمته حجرا.

لم تكن أم إبراهيم منذ زواجى بمثل هذا الحنان، وكأن شيئا تبدل، أو أنها أبدلت روحها بروح جديدة.

كنت ممتنة وشاكرة، حاولت تقبيل قدمها، وإن لم أستطع البوح لها بأمر ذهابى للكلية متخفيةً.

الفصل الثالث

مر أسبوع على وفاة الحاج إسماعيل، وكان لابد لى من العودة لبيت زوجى، حين أتت حماتى تطلب منى العودة.

-لازم يابنتى ترجعى البيت بيت جوزك، إنت الحمد لله بقيتى كويسة ووشك بقى زى القمر!

عدت لبيت زوجى بعد أن غاب ضوء النهار وحلت الظلمة، ترافقنى حماتى التى جلست بجانبى حانية عطوفة، توصينى بالاهتمام بصحتى وعدم التعرض لمجهود يلحق الأذى بما أحمل.

تناهى إلى سمعى صوت جلبة وضحكات من الغرفة المجاورة، وكان صوت إبراهيم أعلى الأصوات.

تعجبت كثير العجب فالبيت بيت عزاء، ولكنى لم أستطع مناقشة حماتى فى هذا الأمر، وقد كنت أخشى مجىء إبراهيم ولا أتمناه.

كـان النعـاس قـد هجرنـى وظـل ذهـنى شـاردا بالكليـة والمحاضـرات، ويعلـو فى نفسـى صـوت المحاضـر وهـو يقـول – سـبحان الله الخـالق – بعـد كل معلومـة يبينهـا عـن الخليـة الحيوانية.

كانت المآذن قد صدح صوتها بالآذان لصلاة الفجر عندما دخل إبراهيم الحجرة، بخطوات متعثرة ولسان متردد وهو يقول:

- يلا يابت!

كنت شاخصةً محدقةً حين نظر إلى فردة من حذاء ملقى بجوار السرير.

بدأ يخاطب الحذاء وينهره:

- بِس !بِس!

أدركت أنه يتخيل الحذاء قطا ينهره.

سرى الرعب فى جسدى وأحسست وكأن ما برأسى من شعر كأن أحدهم يجذبنى منه جذبا، فاستجمعت شيئا من قواى عدوا إلى غرفة حماتى.

كانت حماتى قائمة للصلاة التى أظن أنها قطعتها لتسأل

عمًّ ألم بي !

- خير يا إيمان فيه إيه ؟

- إبراهيم!

- خير عمل إيه؟

-سكران !

- يقطع الحشيش واللى اخترع الحشيش ! ماهوا الحشيش اللى خلاه يسقط فى الكلية لحد مافصلوه !

-دا حرام يا أمى دا خمرة !

- يابنتى هو وأصحابه بيقولوا مش خمرة !

- إنت ما شفتيهوش يا أمى وهو متهيأ له إن فردة الجزمة قطة وفضل يقولهأ:

- بِس! بِس!

استرجعت حديثا من أحاديث أبى، وهو يقول أن كل مسكرٍ يذهب العقل خمرا، وأنً ما يسكر كثيره فقليله حرام !

انتابنى خوف شديد وأنا أتوسل لحماتى أن لا تتركنى أعود لحجرتى التى كان فيها إبراهيم.

كان خوف حماتى بمثل خوفى وهى تطمأننى أنى لن أبيت مع ابراهيم قائلةً :

-هدى نفسك يا حبيبتى، إنت حتى لو مكانش مسطول، إنت لازم تبعدى عنه عشان الحمل بتاعك يثبت.

أحسست أن البيت الذى كرهته أصبح فيه شيئ آخر يشدنى إليه، وهو حنو حماتى، حتى لو كان حنوها لأجل ما ظننت أنه حمل أوشك أن يحدث، أكثر من كونه حنوا من أجلى.

كنت أنظر للزرائب الخاوية، أكاد أبكى من خلوها مما كنت أراهم أهلى، حين عز الأهل من بنى البشر فى هذا البيت.

كنت أحمد الله كثيرا وأنا أراه دائما يفتح لى طاقة من نور، حين أظن أن الظلام يحيطنى من كل جانب.

كان السكون فى البيت إلا من حديث حماتى، فلم أسمع لإبراهيم صوتا ولم ألحظ له حركة أو خطو، ولعله قد غاب فى نوم عميق.

***

فى اليوم التالى وقد انتصف النهار وأذن المؤذن لصلاة الظهر، بدت خطوات إبراهيم متثاقلة وهو ينادى باسمى.

ارتجفت أوصالى وانزويت فى ركن من أركان الغرفة، أكاد أكتم أنفاسى حتى لا تشى بوجودى.

كانت حماتى قد تولت الرد حين قالت :

-عاوز إيمان فى إيه يا صايع ، البنت حامل ابعد عنها، والصيع اللى زيك دول مايجوش هنا تانى ، مش كفاية إنك اتفصلت من الكلية عشان الهباب اللى بتشربه والصيِّع اللى أنت مصاحبهم.

سمعت صفعة عنيفة تلتها صرخة بصوت حماتى، أجبرتنى على الخروج من مخبأى، لأرى أمه وقد طرحت أرضا وبعض من الدماء بدت على شفتها.

ما أن رآنى إبراهيم حتى سمعته يصيح :

- كنت فين يابنت الكلب؟

وقبل أن تطالنى يده كان الخفير العجوز قد حال بينى وبينه، بكل ما بستطيع من قوة رغم ضعف جسده وهرمه.

كان أول ما نطقت به أمه بعد هذه الصفعة :

- روحى يا إيمان عند أمك وأنا هجيلك هناك يابنتى.

كنت كمن يفر من أسد جائع ،وأنا أعدو ناحية البيت بيت

أبى، أخال وقع أقدامى هى وقع أقدام ابراهيم تلاحقنى.

كان باب البيت مفتوحا على مصراعيه حين ولجت فيه أقدامى، نظرت خلفى فلم أجد إبراهيم فأوصدت الباب الذى كان لا يوصد إلا بالقدر الذى لا يسمح للناظر برؤية من بالداخل، ولكنه لأقل دفعة يفتح.

جاهدت وأنا أحاول جرَّ أريكة كان يجلس عليها أبى، وهو يستمع لأحد الصبية وهو يعيد تلاوة ما كلفه به، من آيات للقرآن بحفظها، أو يقرأ على الصبية ما يود أن يحفظوه ليوم آخر، ارتميت على الأرض لاهثة بعد وضع الأريكة كالمتراس خلف الباب، ونظرت إلى سقف الدهليز وقد بدت السماء فى مخيلتى، وتمنيت أن أكلم الله وأن يرد الله على شكواى.

كنت أخاطب الله فى نفسى وأنا أقول:

(يارب ما الحلال وما الحرام ، فأنا أرى زوجى امتنع كما ادعى عن دراسة الطب لأنه علم كافر، ثم أراه مخمورا لا يميز بين القطة والحذاء، ويصفع أمه التى أوصانا الرسول بحسن معاملتها).

كنت أتمنى أن لا أعود لبيت فيه إبراهيم، وإن كان يشدنى إليه أُمّه وشق فى الجدار وضعت فيها ورقة ببضع كلمات.

لم يطل تأملى وشكواى كثيرا حتى سمعت طرقا خفبفا بالباب أرعبنى، لحظة حتى سمعت صوت حماتى تلاه صوت أمى وقد كانت بالخارج :

افتحى يا إيمان !

توجهت متثاقلة نحو الباب أجر الأريكة، ساعدنى هذه المرة دفع من كان بالخارج ،حتى انفتح جزء من الباب يسمح بدخول جسد أمى ثم جسد حماتى.

كانت أم إبراهيم قد أتت محملة بقليل من الطعام الذى أعدته سلفا، وكان قد ظهر على شفتها العليا تورم انتفخ له خدها، مع جرح ظاهر بالشفة جعلها تتكلم بصعوبة إخراج بعض الحروف من كلماتها.

ربّتُّ على ظهرها ومسحت على رأسها، ثم منحنية مقبلة وقد انهمر دمعها تأثرا، حتى استحث دمعها عينىً فانهمرت منهما الدموع ليختلط دمعنا دونما تنطق شفتانا.

مرت ساعة أو يزيد وكان طرق بالباب، ولم يكن يحتاج الطارق لإذن بالدخول، فقد كان الباب على حاله منذ مرت أمى وأم ابراهيم.

كانت عايدة بوجهها الملائكي وخطواتها الرقيقة، وكأنها

بدخولها قد أزالت ما كان يخيم على الجميع من حزن وهم.

استقبلتها أمى مرحبة وهى تناديها:

-اتفضلى يا دكتورة عايدة ، اتفضلى يابنتى !

جلست عايدة صامتة تتأملنا وكأنها تسفسر دون كلام عما يدور.

استأذنت حماتى بالإنصراف تاركة عايدة بصحبتى.

كانت عايدة قد أتت ببعض المحاضرات مكتوبة ومسجلة على أشرطة، وكان لديها إصرار على مراجعتها معى خشية أن يستعصى على شىء قد فاتنى.

ظلت أمى ناظرة محدقة مستغربةً، وقد علمت أنى التحقت بالكلية و أنى ذهبت متخفية مرات بينما كان الجميع منشغلين بمرض الحاج إسماعيل.

كانت عايدة وكأنها تقلد المحاضر الذى حضرت معه أولى محاضراتى، تردد بعد كل جملة أو ربما قبل كل جملة- سبحان الله الخالق-.

اختفت الدهشة من وجه أمى ليحل على وجهها الاهتمام ثم سألت ينازعها الفرحة والحيرة :

- هوا إنت ناوية تروحى الكلية يا إيمان ؟

-أنا رحت فعلا يامه وأنتم مشغولين بمرض الحاج إسماعيل !

- بس يا حبيبتى !

ثم سكتت برهة لتكمل :

-جوزك يابنتى..لو عرف تبقى مصيبة!

- سيبها لله يا مه!

أكملت عايدة ما بدأت، وقبل أن تستأذن بالانصراف كانت حماتى قد عادت، محملة ببعض الفاكهة التى لم أرها فى بيت الحاج إسماعيل منذ أدخلت إليه رغما عنى.

كانت الأوراق مازالت تلهو على فخذىَ وعلى فخذى عايدة.

أسرعت أمى لاصطحابها إلى الغرفة المجاورة وكأنها لا تريدها أن تكشف ما ستراه وعلمته أمى قبلها بقليل.

عادت حماتى بعد دقائق وقد كانت عايدة لملمت الأوراق، وأخفت شرائط التسجيل وانصرفت.

كان مجيئها مطأطة الرأس وكأنها تريد الاعتذار عن شىء ما.

لفنا الصمت وكان قلبى قد علت دقاته انتظارا لما سوف تقول بعد صمتها.

- شوفى يابنتى اعتبرينى أنا أمك، مش حماتك، أمك انت مش أم إبراهيم ،يابنتى أنا كنت حاضرة اتفاق أمك مع الحاج إسماعيل الله يرحمه إنك تكملى تعليمك، أنا يابنتى مش هزعل من مرواحك الكلية، بس حاولى يا حبيبتى إبراهيم ما يعرفش!يمكن لو كملتى تعليمك ربنا يغفر للحاج إسماعيل، وأهو الواد اللى هييجى تبقى أمه دكتورة مدام أبوه خاب !

هجمت على قدمى حماتى أقبلهما وأنا غير مصدقة ما قالت.

بعد أن انصرفت كنت أتساءل فى نفسى، لماذا هذا اليقين لديها أنى حامل، وأنى حامل فى ولد رغم أن الطبيب لم يكن لديه هذا اليقين؟

كنت لا أتمنى حملا أو ولدا يزيدنى ارتباطا بإبراهيم، وإن كنت لا أود أن يخيب ظن حماتى فأفتقد ما بقى لى فى هذا البيت.

***

صحبتنى عايدة للكلية كما عودتنى، حاملة معها ما سوف أبدله من ملابس أحضرتها معها.

كنت أكثر طمأنينة وأكثر حماسا لحضور المحاضرات وحضور الأقسام العملية التى كانوا يسمونها السكشن.

كان السكشن بخلاف المحاضرات عدد من يزاملنا فيه لايزيد عن الأربعين، وقد كان عدد حضور المحاضرات يزيد عن الأربعمائة من الطلبة.

تسابق الطلبة إناثا وذكورا للتقرب منى ومصادقتى، وكنت أخشى الذكور أبتعد عنهم ما استطعت وأدس نفسى وسط زميلاتى.

كنا فى منتصف السبعينات من القرن العشرين، حين اقترب منى أحد الزملاء واضعا ورقة فى حقيبة يدٍ كنت أحملها، ذكرتنى بالورقة الأولى التى وضعت فى حقيبتى وأنا فى الصف الثانى الثانوى ، تلك الورقة التى دسستها فى شق جدار بيت أبى، أحج إليها ما استطعت وأنا أحفظ فى رأسى كل ما فيها.

انصرف الشخص مسرعا ووجدتنى من باب الفضول أتصفحها، وكانت دعوة للإلتحاق بجماعة سميت جماعة شباب الإسلام.

لم أكن أدرى ماهى جماعة شباب الإسلام أو كيف يمكننى الانضمام لهذه الجماعة.

ما أن رأيت عايدة حتى استفسرت منها عن الجماعة التى سميت شباب الإسلام ؟

ردت عايدة ضاحكة وهى تقول :

- كبرى دماغك وخليكى فى المذاكرة امتحان نصف العام قرب!

نسيت الورقة وانشغلت بتحصيل ما فاتنى حتى أكون على استعداد للامتحان.

أبليت بلاءً حسنا فى الامتحانات التحريريةً والعملية ثم جاء موعد الامتحانات الشفوية.

قسمت الطلبة الى مجموعتين مجموعة كنت فيها وكانت معى عايدة، ومجموعة أخرى لمحت فيها على غير قصدٍ ذلك الذى دس بالورقة فى حقيبتى، وكان يغلب على الطالبات فى المجموعة الثانية المنتقبات ، وكانت أقل فى العدد وإن كن أكثر ثقة فلم يكن يبدو عليهن ماعلى رفاقى من قلق واضطراب.

نادى المنادى أن على مجموعة الدكتور رفعت النحال الوقوف أمام حجرة أشار إليها ،بينما قسمت مجموعتنا إلى

أكثر من مجموعة لكل مجموعة ممتحن.

لم يكن ثمة ما يشغلنى حتى سمعت صياح أحد الطلبة وهو يقول معترضا :

- فين العدل فى الامتحانات؟ الدكتور رفعت يمتحن شباب الإسلام ينجحهم من غير ما يسألهم، واحنا ندوق المر فى الأسئلة ؟ إيه الإسلام فى كده؟

حين أتى دورى فى الامتحان كان الممتحن هو ذلك المحاضر الذى حضرت معه المحاضرة الأولى والذى كان يردد -سبحان الله الخالق-وكان اسمه الدكتور إسلام.

حين رآنى الدكتور إسلام بدت البشاشة على وجهه والود فى كلماته :

- إزيك يا إيمان؟ شوفى أنا عارف ظروفك ! قوليلى انت مذاكرة ايه عشان أسألك فيه ؟

- أشكرك يا دكتور بإذن الله مذاكرة كل حاجة !

-ياه دانت واثقة بقى؟

- الحمد لله يا دكتور إنت حببتنى فى المذاكرة ؟

كان الدكتور إسلام يتدرج فى صعوبة ما يسألنى فيه وفى

كل مرة تنفرج أساريره مهللاً، وكان حريصاً وهو يودعنى أن يعلمنى أنه أعطانى الدرجة كاملة ولم يفعلها مع أحد غيرى.

بعد انتهاء الامتحان كان لزاما أن أنتظر عايدة حيث أبدل ملابسى وأعطيها ما أتت به لأجلى كما يحدث كل يوم.

لم تكن عايدة تسألنى عن إبراهيم، ولم تكن تأتى على ذكر بهاء، رغم أنى كنت أتمنى أن أسمع ولو اسمه يتردد بين شفتيها.

كل شيء في عايدة كان يذكرنى ببهاء الذى ذهب دون حتى أن أكلمه.

ونحن فى الطريق إلى دورة المياة حتى أبدل ملابسى، كانت عايدة مبتسمة وهى تزف إليَّ بشرى :

-شوفى يا ستى انت ليكى مكافأة أربعة وتمانيين جنيه ينصرفو على ست دفعات الدفعة الأولى والتانية وصلت يعنى ليكى ٢٨ جنيه!

كان هذا المبلغ كبيرا جدا فلقد كان السفر إلى الكلية والعودة يكلف فقط عشرة قروش كانت تتكفل بهم عايدة قبل الآن.

دهشت من هول ما سمعت وقلت مستغربة:

- طيب يا عايدة أنا هعمل بهم إيه ؟

- يابنت يا هبلة نجيبلك الهدوم اللى تخليكى أشيك واحده فى الدفعة إنت أجمل ما فى الدفعة!

كانت سعادتى بما قالت عايدة سعادة أنستنى إبراهيم وحماتى.

***

حين توقفت أمام الملابس المعروضة تذكرت حماتى، وتذكرت يقينها أنى حامل فاكتفيت بشراء طاقم واحد، رغم الحاح عايدة بأن ذلك لا يكفى وتحت إلحاحها اشتريت حذاءً أنيقا عالى الكعب، وإن كنت لا أعرف كيف أسير فيه دون أن أزِل.

عندما رجعت للبيت كانت حماتى تنتظرنى بالبيت مع أمى.

لم أنتظر حتى أتذوق الطعام الذى أتت به حماتى حين أخبرتهنً بأمر المكافأة وأمر الفستان وما تبقى معى وكان رد حماتى أن أترك المال مع أمى آخذ منه ما يكفينى وشجعتنى على شراء فستان آخر.

كان اليوم الأخير فى الامتحانات الشفوية وكنت ما زلت فى بيت أمى وكانت حماتى تزورنا يوميا حاملة بعض الطعام.

حين علمت حماتى بانتهاء الامتحانات اقترحت على أن نزور الطبيب.

- بس أنا كويسة ياأمى مش بشتكى من حاجة!

- يا حبيبتى أهو نطمن!

لم أكن راغبة فى الذهاب للطبيب، ولم أكن على عجلة من أمر الحمل الذى تستعجله حماتى.

أكد الطبيب ما ظنته حماتى فلقد كنت حاملا فى الشهر الثالث.

كانت أفكارى مضطربة لست أدرى إن كنت سعيدة أو غير ذلك، لكن أمر الدراسة وإكمال ما بدأته يلح على.

ها هى حلقة أخرى تقيدنى بإبراهيم الذى ما تمنيت يوما أن يربطنى به شىء، ولكن هى مشيئة الله ولا راد لمشيئته.

دهشت حين نادت حماتى على سائق الحنطور ليوصلنا إلى البيت، وقد كانت المرة الأولى التى اعتلى هذا الحنطور، أو يعتليه أحد ممن أعرف، فقد كانت أرجلنا لا يجهدها الطريق

مهما طال، ولكن هاهى حماتى استوقفته لرحلة العودة بعد زيارة الطبيب.

كانت دقات أقدام الحصان واهتزاز جسمه كما لو كان راقصا.

أكان الحصان يرقص فرحا بى أم شماتة، لست أدرى؟.

قطع صمتى قول حماتى:

-آن الأوان يابنتى ترجعى بيتك، بيت إبراهيم يابنتى هو بيتك واستحملى أكيد هييجى يوم ويعقل!

لم يكن لدى اختيار بين القبول أو الرفض ، فما بدا من حماتى من حنان زاد عما تبديه أمى، ولا يجب أن أؤخر لها رغبة أو أترك فى نفسها غصة.

لم يكن إبراهيم بالبيت كانت حماتى وذلك الغفير العجوز.

اتجهت إلى حيث الغرفة التى قضيت فيها الليلة الأخيرة ،حيث تبيت حماتى.

ضاحكة جذبتنى حماتى وهى تطمئننى أن إبراهيم غير موجود بالمنزل ثم أردفت:

- تعالى أنا وانت هنبات فى أودتك وعلى سريرك!

كانت تشد على كلماتها بأن الحجرة حجرتى والسرير سريرى.

حمدت الله كثيرا وإن كنت أدارى غبطتى بغياب إبراهيم عن المنزل، وتمنيت أن يطول غيابه، خائفة من منعى من الذهاب الى الكلية.

كانت دراستى التى بدأتها وكأنى مازلت أقرأ مقدمة كتاب يحوى الكثير، تقربنى أكثر فأكثر إلى الله، الذى تصورته وأعلمت به، الله القادر الذى أتقن كل شىء صنعه.

كنت أجهز نفسى للذهاب إلى الكلية- وقد مرت أيام ثلاثة ولم يعد إبراهيم- متخفية كالعادة إلا من حماتى، حين دق الباب أحد الخفراء مناديا حماتى، حيث انتحى بها جانبا وأسر لها كلمات صاحت فزعة وهى تقول:

- يا مصيبتى !

كان لابد لى أن أسألها فلم ترد وخرجت إلى الشارع دون أن تعدل من ملابسها أو أن ترتدى غطاء رأسها.

تملكتنى الحيرة والاضطراب وأنا لا أدرى ما يجب أن أفعله، وكانت عايدة قد أتت للباب تنتظرنى.

وجدتنى عايدة مضطربة وأخبرتها بما كان فنصحتنى بأن

أنتظر، وأن لا أذهب للكلية فى هذا اليوم حتى أستبين الأمر.

ما كاد النهار ينتصف حتى كانت أمى تعدو إليَّ مهرولة وهى تخبرنى أن إبراهيم قد تم احتجازه بمركز الشرطة، مع أمر منها أقرب للرجاء أن نذهب إليه.

لم يكن لدى أى تردد فى الوقوف بجانبه فهو مهما حدث زوجى ووالد ما أحمل فى أحشائى.

فى مخفر الشرطة علمت أنه تم احتجازه بتهمة حيازة مخدر الحشيش ومعه ثلة من أصحابه.

لم أكن أدرى بأى الكلمات أواسى حماتى وأنا أدعو الله أن يفك كربها ويعيده سريعا لهذه السيدة التى لا تملك غيره من ذرية.

لم يطل احتجازه فى مخفر الشرطة الا أياما قليلة، وقيل لنا أنه دون أصحابه قد تم ترحيله الى المحكمة العسكرية متهما بتهمة أخرى، وهى الهروب من التجنيد فى حرب أكتوبر ٧٣.

تحت الحاح أم ابراهيم كنت قد انتظمت فى الكلية وكنت أصحبها يوم الجمعة لزيارته حيث كان فى محبسه.

استعملت المحكمة العسكرية الرأفة، حين قدم المحامى ما يفيد بأنه العائل الوحيد لوالدته العجوز بعد وفاة الأب فصدر حكم المحكمة العسكرية بالحبس ستة أشهر مع إيقاف التنفيذ.

كان لابد من عودة إبراهيم للسجن العمومى لمحاكمته عن جرم حيازة وتعاطى المخدرات.

الفصل الرابع

بعد انتهاء المحاضرات صحبتنى عايدة لإحدى محلات الكوافير قائلةً:

- أنت أجمل مافى الدفعة ولازم تبانى الأجمل لكل الناس !

كاد الخجل أن يقتلنى وأنا ذاهبة إلى حيث صحبتنى عايدة، كنت أؤخر رجلا ولا أقدمها عند باب الكوافير، وكانت عايدة تجرني جرا إلى الداخل.

كان صاحب المحل رجلا فى الثلاثينات من عمره استقبلنا بحفاوة، ولكنى عدوت للباب رافضةً أن أسلم وجهى ورأسى لرجل.

سمعت صوتا ينادينى صوت أنثى عذبة الصوت وهى تقول:

-اتفضلى يا آنسة متخافيش أنا اللى هكون معاكى !

لم تكن عاملة المحل تدرى أنى لم أعد آنسة، أو أنى أحمل فى أحشائى ما وضعه إبراهيم رغما عنى.

بين ضحكات عايدة ووجه عاملة الكوافير الذى بدا حسن الطلعة، دقيق الملامح منتظم كل ما فيه، وكأنه عقد رصَّ حباته فنان فأبدع تكوينه.

أسلمت نفسى وبدأت يداها تعمل فى وجهى ويداى وأظافرى حتى حان قص الشعر سألتنى :

- تحبى تسريحة مين من الممثلات أعمله لك ؟

نظرتُ إلى عايدة مستغربة وأنا لا أفهم ما تقصد، فلقد كنت إلى وقتها لم أشاهد أيًا من الممثلات ولا أعرف كيف تكون تسريحتهن.

تجاهلتنى عايدة وإن كان يبدو على وجهها ابتسامة تداريها :

- اعملى لها تسريحة شمس البارودى ! بهاء كان يحب يشوفها بتسريحة شمس البارودى !

وكأن شعلة من لهب أصابت أوصالى فالتفت إلى حيث تقف عايدة، فانطبع فى ذهنى وجه بهاء وكأن الواقف بيمينى هو بهاء ، لحظات حتى غاب وجه بهاء وكأنه بقعة من السحاب ليطل على وجه عايدة وقد بدأت تلمع فى مقلتيها دموع تحاول أن تداريها.

كانت دموع عايدة قد استحثت دموعى فانهمرت كما كان

الحليب ينساب من ضرع البقرة حين أستحثها بأصابعى.

لم أكن انتبه لما تفعله عاملة الكوافير وأنا أنظر فى داخلى إلى صورة بهاء، ثم تفاجأنى صورة إبراهيم فينتابنى الفزع خوفا من أن أكون خائنة لزوجى الذى لم أتمنه، بنظرى إلى الذى تمنيته وغاب عنى.

عاتبتني أمى عتابا شديدا حين رأت ما فعلته عاملة الكوافير بوجهى، وإن كنت جاهدت أن لا ترى ما فعلته بشعرى، وكنت قد أخفيته بغطاء رأسى، ولكنى كنت مشغولة بالذهاب إلى الشق فى الجدار، الذى أودعته رسالة بهاء، وأنا أقول فى نفسى أحقا هذا ما كنت تتمناه يا بهاء؟

كان عتاب أمى أن لا يصح أن تتزين المرأة وزوجها قابع فى السجن.

كانت خشيتى وخجلى من أن يغضب حماتى ما جرى، وتمنيت أن أرجع كل شىء لما كان، ولكن حتى وان أرجعت شعرى ماذا أنا فاعلة بوجهى ؟

لم تبدِ حماتى أى اعتراض سوى لمعة الدمع فى مقلتيها وانصرفت من أمامها سريعا، أجهز لها طعامها حتى لا تظن بى نزعة للتمرد لم أكن أنتويه، فلقد كان حنان حماتى الذى بدا بعد ظنها ثم يقينها بحملى، جعلنى أتمنى أن أفعل المستحيل

لإرضائها رغم قسوة ابنها ووحشيته.

كانت عايدة قد اشترت لى طقما آخر يكسو إلى ماتحت الركبة بقليل، وهى تحثنى على الظهور كما تظهر الزميلات فى دفعتى قائلةً:

-إنت مش أقل منهم يا إيمان وأنت أجمل منهم كلهم لابد يكون مظهرك جميل !

كان الطقم يماثل طقما ترتديه عايدة، تعمدت أن ندخل مدرج المحاضرة ونحن نلبس نفس الطقم، حتى لا يظن زملاء الدفعة أننا نتبادله.

أخجلتنى العيون حين اشرأبت ناظرة إلي حين دخولى، وكأن ليس فى المدرج إلا أنا، حيث علا صفير من هنا ومن هناك.

استدرت مسرعة إلى الباب أنوى الخروج، ولكن عايدة منعتنى مبتسمة، ثم صوت المحاضر وهو يأمرنى أن أجلس فى الصف الأمامى وكأنه أراد أن يرانى كل من فى المدرج.

منذ ذلك اليوم كان الجميع زملاء وزميلات يتوددون الىَ ومحاولين التقرب منى، وكان الذكور منهم كثير ما يتحايلون فى نسخ المحاضرات بخط واضح جميل وإهداؤه لى علي أقبلها،

ولكنى كنت أتعلل أن لدى ما يعرضون وأشكرهم على ذلك.

لم يكن هناك بدٌ من أن يعرف الجميع وقد اقترب امتحان نهاية العام أنى متزوجة، وقد بدا انتفاخ بطنى يزيد وعلامات الحمل تفضحنى.

***

انتهت السنة الإعدادية وقد حصلت على مرتبة امتياز فى نهاية العام، وشاركتنى عايدة نفس المرتبة وإن زادت عنى بضع درجات.

كنت أواظب كل يوم جمعة على اصطحاب حماتى لزيارة إبراهيم فى سجنه، ولم يتحدث أو يبدُ منه أى شكوى مما بدا عليه مظهرى، ولم يبدُ منه أنه لاحظ امتلاء بطنى وكنت على يقين أن أمه قد أخبرته.

كانت حماتى قد اعتادت أن تنادينى أم إسماعيل، ليقين لديها أنى أحمل فى بطنى ولدا سوف تسميه إسماعيل

***

جاءنى المخاض وقد مر ما يقرب من الشهر بعد الامتحان، حاولت كتمان ما بى من ألم إلى أن وصل الألم لدرجة لا أحتملها فعلا صوتى وقد كان الوقت ليلا، صوت

أفزع حماتى إلى أن أدركت أن هذا لابد أنه ألم الولادة، فأسرعت إلى مولدة فى البلدة يسمونها (أم الخير الداية)

استمر الألم ساعات طوال حتى وضعت وكانت المولودةُ أنثى.

كانت خيبة الأمل تبدو على وجه حماتى و قد كانت شهورا تنتظر ولادة اسماعيل.

كانت أمي قد انتقلت لمرافقتى وقد خفً اهتمام حماتى بعد خيبة أملها، وإن أصرت أن أقضى أيام نفاسى فى بيتها، ولا أذهب لبيت أمى.

لم تكن حماتى متحمسةً لاختيار اسمٍ للمولودة وإن كان إلحاحنا عليها بأن تختار لها اسمًا فيكون ردها :

- سموها أنتم زى ما تسموها!

أسميتها (أمل).

***

كانت أمل قد أتمت شهرها الثانى حين فاجأنى إبراهيم بالعودة، كنت أعلم أنه حكم عليه بالسجن لمدة عام فى قضية المخدرات ولم يكن قد مر عام.

كان إبراهيم يرتدى ثوبا أبيض وغطاء أبيض للرأس، وقد طالت لحيته كثيرا.

لم يكن الكثير من أهل القرية بعلم بحقيقة سجن إبراهيم أو ما اتهم به.

كان يبدو هادئا مطأطئ الرأس على غير ما كان قبل سجنه.

كنت أقترب منه وأنا أخشى من صفعة أو ركلة ولكن خاب ظنى.

عندما حدثته عن أمل وكيف أنها جميلة رد باقتضاب ومازال مطأطىء الرأس :

-مبروك

ما كاد يمر اليوم ويأتى صباح آخر حتى امتلأت الدار بالزائرين وكانو كما كان إبراهيم، يلبسون الثوب الأبيض وغطاء الرأس الأبيض وتتدلى من أيديهم مسابح، يقلبون حباتها بحركات ولا تنطق السنتهم بما يفترض أن يصاحب تقليب الحبات بحمد أو ذكر.

كان أمر أمل يشغلنى فتولت حماتى الترحيب بالضيوف وإطعامهم.

عندما بدأت ستارة الليل تحجب ضوء النهار سرى فى جسدى خوف أعرفه، وقد كنت قد اعتدت عليه.

سوف يأتى إبراهيم قائلا:

- يلا يا بت

فأسلمه جسدى دون رغبة منى، وما زاد قلقى أنه قد يشغلنى عن أمل، وكان بكاؤها لا يهدأ إن تركت صدرى.

مر الليل ولم يأت إبراهيم ولم أعلم فى أى الحجرات كان مبيته.

عندما زارتنى أمى فى اليوم الثالث، أخبرتنى أن القرية تتحدث عن احتجاب إبراهيم فى الشهور التى غابها، يتدارس الطب النبوى حتى علم كل أسراره، وزاد بعضهم أنه قد احتجزه الجن تحت الأرض فعلموه فنون الطب والسحر، ولم تنس أمى أن تنصحنى ألا أفصح لأحد عن حقيقة غيابه حتى لا يكون عارا يلحق بابنته التى هى ابنتى.

لم أكن أحتاج لنصح أو أنى قادرة على فضح أمر غيابه، فلم أكن أصاحب أحدا غير عايدة.

كان البيت لأيام لا يخلو من الجلابيب البيضاء وأغطية الرأس البيضاء والذقون الطويلة ،كنت أراهم متخفية من

وراء حجاب ولم أدقق فى وجوه أحد منهم، وكنت لا أكاد أسمع صوتا إلا صوت إبراهيم، عندما ينادى الخفير العجوز أن يطلب من أهل البيت أن يأتوه بالطعام.

كان الليل ساكنا هادئًا إلا حين تأتى حماتى لزيارة عابرة فى حجرتى، ولم أسألها عن شىء يحدث ولم تكن تفاتحنى فى شىء.

كثرة الزائرين فى البيت قلل من زيارة أمى، فلم يكن يؤنس وحدتى غير أمل كانت تؤنسنى حين تبكى وحين تهدأ، حين تصحو، أوحين تنام.

تلصصت ليلة إلى الزريبة حيث أخفيت خطاب بهاء الأخير، الذى أظن أن روحه قد سكنت جسد عايدة فأملته عليها.

كانت الزريبة قد ملأت بأجولة، لاحظت فيها أوراق نباتات وبذور وسيقان.

كم كان حزنى وخيبة أملى وأنا أجاهد للوصول فلا أستطيع، وكأن هذه الأجولة بثقلها قد حطت على صدرى.

علا بكاء أمل وكأنها تستغيث أن يرفع أحدهم عن صدرى هذه الأحمال.

كانت يدها تربت على صدرى حين حملتها فكأنى أنا الرضيعة تهدئ من حزنى وخيبة أملى.

لفنى ما يشبه الضباب وأنا أنظر إلى أمل، فكأن وجه بهاء يطل على حيث كان وجه أمل، ثم رأيت طيف بهاء وهو يتأبط خصر أبى خارجا من المسجد.

كانت لدى رغبة فى الصراخ حجبها صراخ أمل فوضعتها على صدرى، فانقشع كل شىء ولم يتبقَّ إلا أمل كأنها تحدثنى بغير لغة ولكنى أفهمها.

مرت أيام كانت الجلابيب البيضاء تنحسر يوما بعد يوم، وكانت جلابيب الفلاحين تزيد يوما بعد يوم.

لم تكن جلابيب الفلاحين تستقر، مابين طارق للباب ومغادر ،شىء ذكرنى بدكان أمى الذى أغلق بوفاة أبى.

عندما لاح فى خاطرى دكان أمى أطل على وجه أبى، ثم طيف بهاء وهو يتأبط خصر أبى ذاهبا للمسجد أو آيبا منه.

كنت أتلصص كل ليلة الى الزريبة على أصل الى حيث أودعت الجدار كلمات بهاء بعد وفاته، وكأنى أبحث عن روحه التى وعدنى أن لا تفارقنى.

يا لها من روح تسكننى وأبحث عنها.

كانت الأجولة قد كتب عليها بخط واضح منمق ما بداخلها، أسماء كنت أعرف منها قليلا وما لا أعرفه كان أكثر.

أذكر منها أسماء كالحلبة والينسون ،وقشر الرمان والترمس والشمر،والحبة السوداء والزعتر.

لم أكن أعرف مالحبة السوداء أو الزعتر وما الشمر.

كل ما أعرفه أن هذه الأجولة قد منعتنى من الوصول إلى ما أبتغيه من زيارة كتلك الزيارات التى كان أبى يقوم بها للحسين وللسيد البدوى.

كانت زيارات أبى سهلة يسيرة رغم طول السفر وزيارتى شاقة عصية رغم قرب الخطى.

***

كان قد مر ما يقرب من الأسبوعين مذ عاد إبراهيم وكانت المرة الأولى التى يأتينى ليلا.

كدت أزوى إلى ركن فى الحجرة خائفة مرتعشة، وأنا أعلم ما بعد كلمة(يلا) وما معنى امتناعى.

بكت أمل وكأنها تسترحمه ألا يفعل.

مابين رعبى مما سيأتى، و خوفى على أمل التقطتها على

صدرى وكأنها درع يحمينى من طعنة غادرة وكأن يدى درع يحميها من سهم قد يصيبها.

اهتزت الحجرة مع ارتعاد فرائصى حتى كأنها تكاد أن تهاوى منهية خوفى ورهبتى، بينما كان إبراهيم يقطع الحجرة صامتا مطأطىء الرأس وكأنه يبحث عن قدميه.

مرت الثوانى بطيئة بينما علت دقات قلبى كموسيقى جنائزية رتيبة.

محاولة إخفاء ارتعاشتى ناظرة إلى وجه أمل حتى التقت نظراتنا، ثم رفعت رأسى وقد أمدتنى نظراتها بشىء من القوة وأنا كالقطة التى فقدت كل حيلة فكشرت عن أنيابها.

لم يعد إبراهيم فى الحجرة وكأنه طيف عفريت قد تلاشى، ولم أعد أسمع له صوتا أو أحس له حركة.

مر الليل طويلا باردا رغم قسوة حر الصيف الذى كنت أحسه قبل مجيئه، وكانت أمل على غير عادتها صامتة وكأنها تفكر فيما شُغلت به رأسى.

حين صاحت الديكة منبئة بقدوم الفجر أحسست بخطى بالدهليز مقتربة ومبتعدة، وأنا أترقب الباب فى انتظار تسلل الشبح الذى انسل خارجا دون أن أراه.

وكأنى أصابنى الخدر وأنا أسمع الإمام فى الجامع القريب وهو يقول (اللهم اهدنا فيمن هديت، وتولنا فيمن توليت، وقنا واصرف عنا شر ما قضيت، إنك سبحانك تقضى ولا يقضى عليك)

تسلل النوم إلى عينى تاركة أمل تعبث فى صدرى دون صوت.

انسل شعاع الشمس إلى عينىَّ من خلال النافذة المرتفعة، وكأنه صوت أبى يستحثنى أن أفيق فقد قرب موعد ذهابى إلى مدرستى.

بطيئة كانت خطواتى وأنا أذهب إلى حيث الإناء ذو الصنبور، لأحلب منه قدرا من الماء أغسل به وجهى، كما تعودت قبل الذهاب إلى المدرسة بينما كانت أمى تعد لى طعام الفطور.

لم يطل مكوثى حاضنة أمل حتى كان دخول أمى، حاملة بعض الخبز والجبن والخيار وكأنى حقيقة أهم بالذهاب إلى مدرستى.

انشغلت عن الطعام أنظر إلى وجه أمى وكأنها تريد أن تفاتحنى فى شىء، ولا تعرف كيف تبدأ الحديث.

مشجعة لها على أن تبوح :

-فيه حاجة يامه ؟

-حبيبتى إنت عارفه إن جوزك اتغير بعد اللى شافه، وهو اتعلم الطب النبوى وازاى يشفى كل الأمراض بالأعشاب وعايزك تساعديه !

- أساعده ازاى يامه وأنا معرفش حاجة عن اللى انت بتقولى عليه؟

- هوا يا حبيبتى كاتب كل حاجة المرض وعلاجه، وعاوزك وهوا غايب تتصرفى زى ماهوا كاتب.

بعد مايزيد عن النصف ساعة كانت حماتى قد أتت ببعض الأوراق مكتوب فيها بعض الأمراض والعلاج، حفنة من كذا وحفنة من كذا، والمريض هو الذى يشخص حالته واستفاضت حماتى فى الشرح غير ناظرة الى الأوراق وهى تقول:

- يعنى يابنتى لو واحد قالك عاوز علاج للسكر، موجود فى الورق، ولو علاج للضغط كله موجود والأسعار قدامك فى الورق، انت عارفة أنا لا بقرا ولا بكتب!

-طيب يا حماتى إبراهيم هيكون فين ؟ طيب ما يتصرف هوا !.

- يابنتى إبراهيم هيعتكف مع إخوانه أربعة أيام فى الأسبوع وهييجى هنا ثلاثة أيام.

أزال نبأ غياب إبراهيم أربعة أيام عنى نصف همى ونصف قلقى ، وافقت مسرعة وأنا أتمنى أن يطول غيابه.

بعد صلاة العشاء تسلل إبراهيم إليَّ وأنا واضعة أمل على صدرى.

حاولت أن أنشغل بهدهدة أمل ولم يكن ينتابنى ما انتابنى بالأمس من خوف وترقب، حتى سمعته يقول وهو يجتر الكلمات وكأن الكلمات لا تطاوعه :

- هوا أبويا الله يرحمه هوا اللى ضربك ولّا البقرة يا إيمان؟

- بتسأل ليه؟

- أبويا الله يرحمه كان بيقول قبل ما يموت إن فيكى سرًا! لأن البقرة عملت اللى عملته بعد ما ضربك.

- الله يرحمهم الاتنين ، أنا مسامحة فى كل اللى اتعمل فيا.

ما كدت أكمل كلماتى حتى تسرب إبراهيم خارجا وبقيت وأمل تملأ كل جوانحى.

***

ازدادت أعداد المترددين بحثا عن أمل فى العلاج مابين معممٍ ومطربش و أصحاب الطواقى البيضاء من الفلاحين وكاشفى الرأس من المتعلمين، وكان إبراهيم قد أعد لفافات من قماش مكتوب عليها المرض وطريقة تناول مافى اللفافة والثمن المطلوب ، وأنا أناول الطالب فى عجلة ثم أسرع إلى أمل التى تولت حماتى حملها والعناية بها ما انشغلت بطارق للباب.

لم يكد يمر قرابة الشهر حتى كان باب البيت يعج بالسيارات المعتادة منها والفارهة التى يبدو الثراء على أصحابها.

أصبحت أتمنى أن يطول بقاء إبراهيم بالبيت حتى أتفرغ لأمل كما كان، وإن كنت لا أتمناه أبدا فى حجرتى أو على سريرى.

لم يتبقّ غير أيام على بداية العام الجامعى وقد كان بالباب سيارة لم أر أبدا بمثل طولها و جمال منظرها.

ترجل منها رجل قائلا:

- الشيخ عاوز علاج للذئبة الحمراء يكفيه ٣ شهور ومستعد يدفع اللى انتم عاوزينه.

كانت تسمية من ظل فى العربة بالشيخ قد أثار فضولى فتأملت لأرى كيف تكون عمامة هذا الشيخ فكل شيخ لدينا له طربوش وعمامة تعلوه.

كان من فى العربة يلبس غطرة وعقال، وجلباب أبيض ولحية قصيرة.

كان ما يلبسه قريب مما كان يلبس العرب فى العزبة المجاورة لقريتنا، وكانو يمتهنون الرعى وتربية الدواب.

أحس محدثى بفضولى فقال:

- الشيخ جاى من الكويت مخصوص لما عرف بركات وعلم الدكتور إبراهيم.

أسقط فى يدى حين تذكرت ماطلبه الرجل وأنا لا أعرف الذئبة الحمراء ولم يترك إبراهيم لها دواء.

إنشغلت طويلا وأنا أبحث فى الزرائب عن علاج للذئبة الحمراء قد يكون إبراهيم تركه هنا أوهناك.

كانت انكسارتى وألمى وأنا أخبر الطالب أنى لا أعرف لها دواءً وأعلمته بأسف أن إبراهيم غائب وسوف يأتى بعد يومين.

كان أول ما استقبلت به إيراهيم حين عودته هو مجئ هذا الشيخ وأنا أعاتبه أنه لم يترك دواءً للذئبة الحمراء.

تبدل لون وجهه وبرزت أسنانه بأطول مما رأيتها ليلة عرسى واتسعت حدقتاه ثم كانت صفعة على وجهى لولا الحائط لكنت طريحةً أرضا وهو يقول :

- كنت اديله! اديله أى حاجة هيا الأعشاب هتموته؟

كانت المرة الأولى التى أغادر فيها بيت إبراهيم قاصدة بيت أمى دون أن أخبر أحدا بالمغادرة وفى نيتى أن لا أعود.

لم تكن أمى بالبيت فلقد اعتادت العمل فى الحقول وفى بيوت الميسورين من أهل القرية.

وقفت أمام الشق فى الجدار حيث أودعته خطاب بهاء الأول، أستحضر كلماته فتلاشت الكلمات وعلا فى ضميرى صوت إبراهيم وكلماته (كنت أديله أى حاجة)

الآن عرفت أن إبراهيم يبيع الوهم للمتعلقين بأمل فى الحياة، مغلفا ما يبيع باسم النبى الذى يثق فيه المؤمنون كامل الثقة والرجاء.

الآن عرفت أنى كنت أعينه على الاحتيال على جيوب الفقراء والمحتاجين، والأغنياء الذين فقدوا كل أمل فى علاج

الأطباء.

الآن عرفت أن الشيطان هزمنى وبال على وجهى وقد أتانى من حيث لا أدرى.

تلاشى من خاطرى حلم الجنة ورفقة النبى أو الحسين.

كان عزمى شديدا أن لا أعود.

تركت الشق فى الجدار الذى حجبه عنى انشغالى بما ظننته ذنباً ليس بعده مغفرة.

ارتميت على الدكة التى كان يجلس عليها أبى وأمامه يتحلق الصبية المترددون لحفظ القرآن ،جالسة كما كان يجلس أبى حاملة أمل على فخذى.

كان جلوس أبى على هذه الدكة يدر علينا ما يكفينا وما يكفى لأن يكافأنى به.

تحسست الدكة من جميع جوانبها حيث تطال يدى فكأنى أناجيها.

فى هذه الدكة سر انعتاقى وطريقى إلى الجنة ورفقة النبى والحسين.

الفصل الخامس

كان اليوم الذى حدده إبراهيم لاختفائه كل أسبوع، وقد أتى إليّ شيخ من أصحاب الجلاليب البيضاء وأغطية الرأس البيضاء طارقا الباب وقد كنت وحدى، بعد ذهاب أمى لتتحصل على ما يقيتنا فقد كان ما تتحصل عليه من أجر بالكاد يكفى إطعامنا.

طرق الشيخ طرقا خفيفا قابلته بالباب.

كان الشيخ قد أتى ليرجعنى إلى بيت زوجى.

لما تأبيت عليه قال:

-ولكنك يابنتى تغضبين الله والرسول بترك بيت زوجك دون إذنه، وهذا يابنتى يدعى نشوزا، والمرأة الناشز تلعنها الملائكة، لقول الرسول عليه الصلاة والسلام " أيُّما امرأةٍ باتَتْ وزوجُها غاضبٌ عليها لَعَنَتْها الملائكةُ حتى تُصْبِحَ"

- بس ياعم الشيخ ده بيضربنى من غير سبب !

- يابنتى الراجل من حقه يضرب مراته، والزوجة الصالحة يجب أن تحتمل غضبه وتعمل على راحته.

عندما أتت أمى حدثتها بحديثه وكنت قلقة متوترة مما قال، وحدثت نفسى أنى ملعونة إن أطعت وإن خالفت.

كنت أتمنى أن تشجعنى أمى على عدم الرجوع، وكنت قد أخبرتها بأن أتولى تحفيظ الصغار لآيات القرآن كما كان يفعل أبى، ولكن خاب أملى فقد كانت أمى راجية متوسلة الىّ أن أعود لبيت زوجى.

لم يكن لدى الجرأة أن أخبرها بيقينى أن إبراهيم لا يمارس طبا ولا يعالج مرضا.

بعد صلاة العشاء كانت حماتى بالبيت تتوسل إلى أن أعود لأجلها ليس لأجل إبراهيم.

كان خوفى من لعنات الملائكة وامتنانا منى لحسن رعايتها لى ما كنت حبلى فى أمل، جعلنى لا أحتمل توسلا، حملت أمل على صدرى وتبعتها.

كان حديث حماتى ودودا وهى تشكو لى ماتعانيه من وحدة فى غيابى، فلقد كنت الوحيدة التى تؤنسها حين يغيب ابنها إبراهيم، وكانت تقول أنها ترانى ابنتها أكثر من كونى زوجة ابنها.

صارحت حماتى بأنى لا أستطيع التعامل مع المترددين

والعناية بأمل التى هى كل ما أملك.

ناظرة إلى قدميها ردت بأسى :

- معاك حق يابنتى أنا أم واعرف لهفة الأم على ضناها.

ثم أردفت بتوسل :

- بكره بس حاولى تقابلى الناس اللى بتيجى وانا هشوف واحدة تكون بتقرا وتكتب، ونديها مرتب ماهو إبراهيم أكيد بيكسب.

لم يكد المؤذن ينهى أذان العصر حتى كانت حماتى قد أتت بامرأة شابة وطلبت منى أن أدلها على ما تفعله.

لم يكن الأمر يحتاج لأكثر من دقائق حتى تعى المرأة ما يجب عليها فعله.

كانت المرأة تكبرنى بأعوام قليلة وكانت تسمى ثريا، كانت جميلة الملامح فائقة البياض تتدلى خصلتاها وكأنهن خيوط ذهبية أتقن الصانع جدلها وترتيبها، وعينان كان اخضرارهن كحبات الزمرد، و كأن كل مافيها ينير، وكأنها حقيقة ثريا تختلف ألوان مصابيحها ولا تتنافر، وكان فى خديها غمازتان وكأنهن صرة التفاح، وكان حديثها يأسر القلوب حتى تكاد تتمنى أمامها أن لا تتوقف عن الحديث، حتى لو كان لديك ما

تود أن تقول، وكأن حديثها أغنية عذبة، لا تملك أمامها إلا أن تتمايل وتطرب.

حين اختفى طرق الباب وانصرف كل باحث عن دواء لعلته، أطلت أشعتها فى غرفتى باسمة كتفتح الزهر شفتاها.

وأنا أتأمل ملامحها مستغرقة فى جمال صنع الله فيها امتدت يداها حاملة أمل تقبلها وتهزها هزا لطيفا. وكأن أمل قد بهرها ما بهرنى ناظرة إليها صامتة.

كان لا بد لى أن أعبر عن مكنون ما أحسه:

-إنت جميلة قوى يا ثريا، يابخت اللى إنت عايشة معاهم!

- انت أجمل مافى البلد يا إيمان، الكل بيقول عليكى كده، ياريت أنا أكون نصك ! ولما قربت منك أقدر أقول إنك أجمل مافى الدنيا.

لم تكن ثريا فى عجلة للانصراف وقد سألتها :

- إنت متجوزه يا ثريا ؟

كانت ابتسامة تحمل من الأسى أكثر مما تحاول أن تبديه :

- متجوزة ومش متجوزة.

- يعنى إيه يا ثريا ؟

-سيبت البيت ومش راجعاله، و طلبت الطلاق والمحكمة مش عاوزة تطلقنى، وحكمت له بالطاعة وأنا مش هنفذ الطاعة.

- طيب ليه كل ده ؟

أسهبت فى وصف قسوة زوجها وحماتها.

كانت رغم يسر زوجها طعامها الخبز الجاف وله أطيب الطعام.

كان لزوجها طعام مع أمه ولها الرغيف المقدد والملح إن أرادت.

كانت ثريا قد مكثت قرابة العام فى بيت زوجها.

لما تأخر حملها كانت حماتها تعايرها أنها أرض بور.

للخلاص من معايرة حماتها ترددت على أطباء النساء فى المستشفى الأميرى، فلم يكن لديها ما تعطيه أجرا لطبيب فى عيادته.

كان كل طبيب تشكو له تأخر الحمل يطلب تحليل الزوج عله يكون السبب فى تأخر الإنجاب.

بعد تردد تجرأت على طلب تحليل من الزوج، صاحت على

إثره حماتها قائلة :

-انت اللى زى النخلة الدّكر إبنى راجل وسيد الرجالة!

كان لابد لثريا أن تهرب من بيت زيجتها إلى بيت أبويها الذين قابلوها بغضب طالبين منها أن تعود ،فقد كان ترك الزوجة بيت زوجها فى نظرهم عارا يستحق القتل ، كما أن الطلاق خزى وفضيحة.

كان لثريا الجرأة أن تترك بيت أهلها وتستأجر غرفة فى بيت تاجر فى قرية قريبة، على أن تدفع أجر الغرفة من حصيلة عملها لديه.

كان لجمالها سطوة جعلت الرجل الوقور بعد أن أغدق عليها أجرا لم تكن تحسبه لشهور، يراودها عن نفسها.

عادت ثريا إلى بيت والديها واحتملت ماكانا يوجهان لها من لوم وسباب، وتنقلت بين بيوت الأثرياء قاصدة أن لا يعوزها قلة المال إلى حياة العبودية كما وصفتها.

كان حديث ثريا كما لو كان مطرا انهمر على حريق نفسى جعلنى أحمد الله على هذا الضوء الخافت فى حياتى التى تشبه ما عاشته، إلا أن حماتى أكثر حنانا ولدى أمل.

وكأنى أعاتبها على ما فعلت رغم أنى أتمناه خاطبتها :

-بس يا ثريا الملايكة بتلعن الزوجة اللى زوجها غضبان عليها لحد ما ترجعله!

ضاحكة حتى كان صوت قهقهاتها يصل إلى مسامع المارين أمام البيت ثم قالت :

- يعنى هما الملايكة يلعنوا المظلوم عشان يرضى الظالم يا إيمان ، يا حبيبتى كل الأحاديث اللى بيقولولنا عليها رجالة، واللى جمعها رجالة، الرجالة ما يعرفوش غير ٣ حاجات – الرجال قوامون على النساء – مثنى وثلاث ورباع- وحديث لعنة الملائكة.

ضحكت حتى كادت أحشائى تتخلص من محبسها إلى الهواء الرحب ، ضحكت كما لم أضحك قبل اليوم.

كنت مازلت أتأمل جمال ثريا وعزوبة حديثها بعد أن هدأ صخب احتفالى بما قالت حين همت بالانصراف.

لا أدرى لماذا أحسست بانقباضة روحى وهى تودعنى وكأنى طفل سوف يترك فى بيت مظلم تملؤه الأشباح. سبق صوتى عقلى وأنا أتوسل إليها أن تبيت معى.

لم تكن ثريا بحاجة إلى كثير من الإلحاح، فقد وافقت أن تبيت معى ما غاب زوجى عن البيت، وبشوق وسعادة ترتسم

على شفتيها وبريق فى عينيها احتضنت أمل وقالت :

- مش هسيبك يا إيمان ولا هسيب أمل!

وكأن ثريا قد ألقت حجرا فى بركة أفكارى الراكدة فاهتز كل مافى رأسى من أفكار ظننت أن ليس لى سواها.

يشبه كثيرا ماعانته ثريا ما أعانيه ولكنها تخلصت بجرأة لم أتخيلها من هذا الطوق واختارت حياتها وحريتها.

كان نومى هادئا مطمئنا وقد تجولت فى جنة الله فى منامى، وكأنى أرى الرسول والحسين متنقلة بين أشجارها وقاطفة من كل ثمارها، وكأنى أسمع فيها هذا الدعاء الذى كنت أنتظره مطلع كل فجر: اللهم اهدنا فيمن هديت، وتولنا فيمن توليت ،وقنا واصرف عنا شر ما قضيت، إنك سبحانك تقضى بالحق ولا يقضى عليك.

كان صوت الإمام مازال يصل إلى سمعى وأنا بين اليقظة والنوم.

تحسست أمل فلم تصل يدى إليها فانتبهت فزعة فإذا بها ساكنة مطمئنة على فخذى ثريا التى كانت جالسة يقظة وكأنها هى من أنجبت أمل.

ما كادت أشعة الشمس تفيق من ثباتها حتى كان الطرق

بالباب.

كان الباحثون عن أمل الشفاء بين ركام الوهم يزيد يوما بعد يوم، و قد علا شجار من تشاجر أملا فى السبق، وتوسلات من توسل، وكانت ثريا كما لو كانت كبندول الساعة جيئة وذهابا باسمة غير متعبة، كان الزحام بالباب شديدا اختلط فيه الرجال والنساء والحمر والسيارات.

مشفقة عليها تركت أمل وقمت لمساعدة ثريا فلم يكن ما يطلب منها قادر عليه أشد الرجال فما بالك بهذه العصفورة الرقيقة.

جاءت الليلة التى لابد لإبراهيم أن يعود وقد حزمت ثريا مالديها من ثياب لتبيت فى بيتها كما كان اتفاقها، ولكن إبراهيم لم يأتِ.

بدا القلق والتوتر على قسمات حماتى وكان الترقب من نصيبى ونصيب ثريا ، ترقب يمحوه للحظات بكاء أمل حتى أرضعها.

ما كاد الليل ينتصف حتى كان طرق بالباب عنيف.

لم يمهلنا الطارق حتى نصل إلى الباب وقد كسر الباب وتدفقت منه أعداد كأعداد الجراد تسربت الى كل ركن من

أركان البيت والزرائب وثلاثتنا فى ذهول نصف عرايا أخبىء ما ظهر من صدرى بجسد أمل.

ما يقرب من نصف الساعة انقشع بعدها ضباب المهاجمين وقد اختلط ما كان فى أجولة الأعشاب بالدقيق والخبز والسمن وما كان يحويه البيت وكأنهم شياطين الحكايات القديمة.

امتد الليل وكأنه لن يغادر وأبى صوت المؤذن لصلاة الفجر من أن يُسمعنا ما كنت أنتظره وغابت الديكة وكأن العمر سيكون ليلا بلا صبح وقد التصقت أجسادنا فى زاوية من زوايا البيت، وكأنا على رؤوسنا الطير حتى استيقظت الديكة بعد طول سبات.

أطلت أشعة الشمس حانية مشفقة وقد عاودت جموع الطارقين بالباب كما كان، ولم يكن قد بقى ما تركه إبراهيم على حاله.

صاحت ثريا بالواقفين بالباب أنه لم يعد هناك ما تعطيه لهم حتى يعود الدكتور إبراهيم.

صياح وهياج و سباب وعويل جعل حماتى تخبرنا بضرورة الرحيل بعد انصراف الجموع.

انتقلنا للعيش فى بيت أمى وكان لدينا من المال ما يكفينا لشهور عديدة فقد كان ماتحصلناه فى الأيام القليلة من مال أكثر مما تخيلته مع أحد قبل الآن.

كان المال يؤلمنى حين أفكر فيه، كيف اكتسبناه وممن انتزعناه.

استيقظت فكرة تحفيظ القرآن كما كان يفعل أبى كى لا أحتاج هذا المال، الذى ظننته حراما وإن كان هذا لم يخطر ببال حماتى، فقد كان لديها ما يؤمنها حتى يعود إبراهيم، غير مضطرة لبيع ما تركه الحاج إسماعيل.

طلبت ثريا بالحاح أن تظل بجانبنا معللة أنها لن تكون سعيدة بفراقى أو فراق أمل.

بدت أمى وكأنها فى دهاليز النوم وقد ظهرت حيرتها وقلة حيلتها ولم تكن تتكلم إلا كما ينطق الحالم.

حين كاشفت ثريا بما أنوى فعله قفزت إلى صدرى كما يقفز القط الأليف مقبلة ومشجعة :

-أنا هكون معاكى أنا حافظة القرآن ومن الوقت هلف على بيوت البلد كلها، وهيكون عندك وقت تاخدى بالك من أمل يا إيمان !

***

لم يعد إبراهيم وقد عادت عايدة، تخبرنى ببداية العام الدراسى.

لم أدر كيف انهمرت دموعى دون إذن منى وأنا أخبرها أن رحلة الطب والتعليم تتلاشى وأنا منشغلة بأمل وبما قد بدأته، وقد ازدادت يوما بعد يوم أعداد الأطفال الدارسين للقرآن، وبدا أمامى الأمل فى أن أريح أمى التى أنهكها العمل فى الحقول وفى البيوت، حتى بدا أن عمرها قد تقدم عشرات السنين.

أبكت كلماتى عايدة وقد همت بالرحيل قائلة:

- الوقت أقدر أصدق إن بهاء مات !

مرت أيام لم أرَ عايدة وقد انشغل ذهنى بما قالت.

كنت أزور الشق فى الجدار مرات فى اليوم وكأنى أطلب من بهاء الصفح والغفران.

لاحظت ثريا ما أعانيه فألحت على أن أبوح.

لم تكن ثريا تعلم أنى طالبة طب أو أنى اجتزت السنة الإعدادية بامتياز.

كان إصرار ثريا أن أكمل مابدأته فى دراسة الطب بعد أن علمت :

- طب ازاى يا ثريا وأمل أسيبها لمين والأولاد اللى بدأنا معاهم؟

-متحمليش هم الأولاد أنا هسد مكانك وأمل أمك وحماتك وأنا هنرعاها، بس انت لازم تبقى دكتورة يا إيمان!

ذكرتها وهى فى غمرة حماسها والحاحها بأن أمل لابد لها من الرضاعة مرة كل ساعتين على الأقل.

- خلاص أنا عندى فكرة مامتك تيجى معاكى الكلية ومعاها أمل وبين المحاضرات ترضعيها!

***

تفاجأت عايدة عند رؤيتى داخلة من باب المدرج وقد تحلقت الأعين نحوى.

كنت ألبس نفس الفستان الذى اشترته عايدة والتى كان لديها مثله وقد ارتدته فى هذا اليوم.

لم تكن عايدة تأبه بنظرات الزملاء ولا سخريتهم حين قفزت على حلقات المدرج وكادت أن تسقط.

كانت دموع الفرح تتسابق مع زهور الدهشة وقد أسالت دموعها ما كانت قد اكتحلت به عيناها.

التصق جسد عايدة بجسدى وانهمرت أمطار قبلاتها وكأنها لن تدع جسدى يفارق جسدها.

حتى صاح من بعيد من يقول :

- انت ياختى انت وهيا المحاضرة بدأت !

كان صوت المحاضر وقد كانت أولى محاضرات علم وظائف الأعضاء، ضمنا مقعدين متجاورين وكنت منصتة للمحاضر متابعة لكل ما يقول، بينما كانت عايدة قد انشغلت جل وقتها بالنظر إليَّ وكأنها كانت غير مصدقة لوجودى إلى جوارها.

عندما فرغنا من المحاضرة كان لابد لى من الذهاب إلى حيث كانت تنتظرنى أمى حاملة أمل، ولم تدعنى عايدة حتى عدنا للمحاضرة التالية وكانت فى علم التشريح.

لم يمر غير أيام قليلة وقد علم من علم بأمر أمل وإرضاع أمل.

***

بينما كنت فى نوبة إرضاع تسللت إليَّ زميلة كانت تلبس

النقاب حتى لا يرى منها غير عينيها وقد عرفتها فقد كانت تختلق الأسباب للتقرب منى.

كانت تحمل حقيبة من قماش أعلمتنى ما بداخلها، فقد كان بها نصف دستة من عبوات اللبن المخصص كبديل لرضاع الأمهات.

لم يكن قد خطر ببالى إرضاع أمل إلا من صدرى فاعتذرت لها شاكرة ممتنة.

وقد كان إصرار منى وإصرار منها حتى جرت مسرعة تاركة ما أتت به فى حجر أمى.

عندما أخبرت ثريا بما كان عقبت بجملة واحدة لم أفهم معناها :

- ياترى وراها إيه؟

كنت قد عرفت الفتاة أنها تسمى سارة، وقد زاد قربها منى وتوددها لى وكان هذا يغضب عايدة ويكسو وجهها الضيق إن رأتها حتى أنى ظننت أن عايدة تغار منها.

حين خطر ببالى أمر غيرة عايدة قفز إلى ذهنى وجه بهاء وقد ارتسم الضيق عليه.

هل كانت روح بهاء قاطنة هذا الجسد المسمى عايدة ؟

ولم لا وقد وعدنى أنه ترك روحه معى استدعيها وقتما أشاء.

وكيف لى أن أستدعيها وهى لا تكاد تفارقنى !

***

مر ما يقارب الشهر على بدء الدراسة، وقد زاد إيمانى بقدرة الخالق ما تقدمت فى دراسة التشريح وعلم وظائف الأعضاء، وقد شجع وجود الرضعات البديلة أن تتخلف أمى عن مرافقتى حاملة أمل ومعللة ذلك بأن أمل تقبل على الرضعات البديلة بمثل ماتقبل على صدرى.

لم يكن إبراهيم فد أتى أو أتى من ينبئنا أين يكون، وظل لغز الشياطين الذين اقتحموا البيت جاعلين أعلاه أسفله محيرا لم يعلم به أحد، وكان يصل إلى مسمعى أحيانا تهامس الناس أن إبراهيم قد اختطفه الجن وهو الآن يسكن باطن الأرض يعلمونه الطب والسحر.

كانت حماتى صامتة جل وقتها وقد بدا تجعد وجهها وانكسار نفسها.

***

اليوم يوم جمعة، وكان اليوم الذى لدى فيه متسع لمتابعة الأطفال ومراجعة ما كانت ثريا تلقنه إياهم ما غبت عنهم لمحاضرة أو قسم من الأقسام العملية، وتتفرغ فيه ثريا لشئون البيت ترتب فيه ماتفرق وتنظف فيه ما اتسخ، وكانت حريصة كل الحرص ألا ترهق أمى وحماتى وقد اتخذت ثريا من بيتنا بيتا لها وكان يكفيها ما يكفينا من طعام ومسكن.

كانت ثريا على خلاف أمى وحماتى مشرق وجهها، ممتدة ابتسامتها، قريبة ضحكتها، قليلة الشكوى، وكأنها تمتلك الدنيا وما عليها.

ساعات مرت بعد أن انتصف النهار وكاد المؤذن ينبؤنا بصلاة العصر وكنت أجلس على الدكة التى كان يجلس عليها أبى، مقلدة جلسته ممسكة بعصاه، التى لم تمتد يوما لعقاب أو حتى التهديد بعقاب كما كان يفعل أبى، وإذا بفتاة منتقبة تقتحم الباب دون أن تطرقه ودون أن يؤذن لها.

لم يطل الوقت حتى أسألها فقد عرفت صوتها وهى تقول بود:

- فين أمل يا إيمان؟

- أهلا وسهلا ياسارة ! عرفتى البلد والبيت إزاى يا سارة ؟

- اللى يحب بيعرف يا إيمان وأنا من أول ما شفتك حبيتك وحبيت أمل !

كانت سارة تحمل حقيبة من قماش كالتى حملتها وكان فيها ماكان فى الحقيبة الأولى –نصف دستة من حليب الأطفال المجفف-وبضع كرات ملونة وصافرة و شخشيخة عبارة عن اسطوانة مغلقة بداخلها حبات من خرز تحدث صوتا إن رجت رجا شديدا.

لم أكن سعيدة بما أتت به سارة فليس لدى ما أهديها به وقد أهدتنى مرتين ولم يكن باللائق أن أرفض هديتها

وقد قبل النبى الهدية كما أخبرتنى، علها كانت متوجسة أن أرفض هديتها.

حين عرض الطعام لم تتمنع وكان طعامنا من الخبز والجبن وبعض الخضروات الطازجة وعيدان اللفت المملح.

أثنت سارة ثناءً كثيرا على ما طعمت وحمدت الله قائلةً الحمد لله الذى أطعمنا وسقانا.

قبل أن تعلن عزمها على الرحيل حملت أمل على صدرها وأحدثت صفيرا تنبهت له أمل ورجت الشخشيخة

ثم قالت :

- أمل بنت الدفعة كلها يا إيمان مش بنتك لوحدك لأنها أول مولودة لزميلة أو زميل!

شكرت سارة وصحبتها للباب وحمدت الله أنها لم تسأل عن زوجى.

ماكادت سارة تغادر الباب حتى كانت ثريا من خلفى تقول :

- بنت غريبة البنت دى !

لم أعقب ولم أسألها عن معنى ما قالت وأكملت ما كنت قد انشغلت به من تحفيظ القرآن وتعليم القراءة والكتابة لمن لم يتعلم.

* * *

بينما كنت أسير بصحبة عايدة قاصدين محطة القطار فى أحد الشوارع المزدحمة فى رحلة العودة من الكلية وكانت عيناى تتابع وقع أقدامى انطلق صوت عايدة بدهشة وحبور وهى تقول :

- دكتور إسلام معقولة !

كانت لهجة السعادة البادية فى صوت عايدة حافزا لأن أرفع رأسى للمرة الأولى لأرى ما أدهشها، وكان الدكتور إسلام المحاضر الذى حضرت معه أول محاضراتى، والذى كان يتبع كلماته دائما بسبحان الله الخالق يشق الزحام قادما إلينا وتفتح زهور السعادة بادية عليه.

كان الدكتور إسلام طويل القامة معتدل العود، غير ممتلىء البطن كما كان معظم أساتذتنى، قمحى البشرة واسع العينين، ذو شارب قصير ولحية قصيرة تساوى طول شاربه، منتظم الوجه مستديره وقد بدا أنه فى أواخر الثلاثينات أو أوائل الأربعينات من العمر.

أصابنى الارتباك مابين محاولتى النظر إلى قدمى وسعادتى التى أحسستها و إحساس بالامتنان، فقد أعطانى الثقة يوما حين أعطانى الدرجة الكاملة، ووعد منه بمساعدتى حين أخذتنى عايدة فى أول يوم وطأت فيه قدمى الكلية.

بعدما ألقى التحية بود اتجه بحديثه نحوى وكأن عايدة ليست بجوارى :

-إزيك يا إيمان عاملة إيه؟

كانت الكلمات تتلاطم فى حلقى كتلاطم الثياب على حبل الغسيل فى يوم عاصف وأنا أحاول أن أحمد الله على كل الأحوال، فلم أكن قبل اليوم توقفت أمام رجل غير أبى وزوجى، وكنت أنظر للمارة وكأنهم يسخرون من وقفتى مع رجل غريب عنى، ولكن كيف الهروب وقد وضعتنى عايدة فى هذا الموقف الذى لم أتوقعه يوما أو أحسب له حسابا.

لاحظ الدكتور إسلام ارتباكى فوجه كلماته نحو عايدة

وهو يشير الى أحد العمائر قائلا :

- المعمل بتاعى هنا يا عايدة أكون سعيد لو زورتونى !

***

كان لابد من العودة لبيت زوجى كما طلبت حماتى، بعد أن هدأت أقدام القادمين طلبا لعلاج توهموه لم يعد لدينا منه إلا أكوام من أعشاب لم نعد نميزها، بينما ظلت ثريا فى بيت والدتى من الصباح إلى المساء تعتلى ما كان يعتليه أبى حتى عودتى من الكلية لأجلس جلستها بعض الوقت ثم أنصرف حاملة أمل.

كان أول ما فعلت أن أزور الجدار الذى أخفيت فيه ورقة بهاء الثانية ليطل على كما لو كنت أراه متأبطا ذراع أبى أو ناظرا إلى قدميه حين طرق الباب مصطحبا الطبيب.

لم تكن حماتى تحدثنى عن إبراهيم ولم أكن أفاتحها فى أمره، رغم ما كان يعتريها من حزن وألم أسكتها حتى عن الكلام إلا للسؤال عن أمل هل أرضعتها.

اقترب نصف العام وقد أخبرتنى عايدة بأن مكافأة التفوق قد توفر منها قسطان.

كان أول ما فكرت فيه أن أكافىء ثريا ببعض من ملابس

اشتريتها كما اشتريت لنفسى وكما اشترت عايدة.

واشتريت لأمل ما يكفيها صيفا وشتاءً كما اشتريت البانا تكفيها شهرا أوبعض شهر.

تسللت إليَّ سارة وقد كنت للتو خارجة من المشرحة التى كنا نتدارس فيها علم التشريح عمليا تسألنى عن أمل وكيف صارت ودار حديث قصير حتى طلبت منى بود أن أحضر بعض الدروس الدينية التى كان يلقيها الدكتور رفعت النحال.

كنت فى حيرة من أمرى وأنا أسابق الخطى حتى لا أغيب عن أمل وهى كل مالى، والأطفال الذين يتدارسون القرآن مع ثريا، ولكن كيف أتخلف عن درس دينى قد يقربنى إلى صحبة الرسول والحسين فى الجنة.

وكأنها قرأت ما كنت أفكر فيه وجدتها تقول :

-احضرى حتى لو خمس دقائق!

***

مرت أيام لا أذكرها وكانت سارة جاذبة إياى بعنف كاد أن ينقد له ما ألبس وهى تستعجلنى للقاء وصفته بالمهم جدا، كان قد أعد له سرادق فى صحن الكلية ،احتشد نفر غفير اختلط فيه النساء بالرجال فى تزاحم شديد، لم يكن بإمكانى

اختراق الصفوف رغم دفع أيدى سارة، ولولا أن وقفت عايدة حائلا بينى وبينها، وكانت قد استشعرت غيابى فقادها حدسها إلى حيث كان محاولة دفع سارة بى وكأنها تلقفنى فم ثعبان كبير، أحسست بعدها بالهواء يروح ويجىء فى صدرى على عجلة وكأنه قد غاب عنى أيام وسمعت عايدة تنهرها بعنف :

-سيبيها الميكروفونات مالية الدنيا واللى على بعد أميال هيسمع!

جلست ومعى عايدة على رصيف يبعد أمتارا عن الحشود وقد كانت ساقاى لا تستطيع حملى.

وأنا فى حالة من الذهول تنامى صوت الميكروفون معرفا ضيفة اللقاء وكانت امرأة تسمى زينب الغزالى.

شد انتباهى كون المتحدثة وصاحبة هذا الحشد الكبير امرأة فأنصت لما تقول.

كنت أظن اللقاء حديث فى الدين يقربنى للجنة أو يبعدنى عن النار، ولكن المرأة استرسلت فى حكايا السجن والتعذيب متهمة عبد الناصر وزبانيته كما وصفتهم بإطلاق الكلاب المسعورة عددهم يقارب العشرين أو يزيد لتنهش لحمها فى غرفة مغلقة ثم تنتهى وصلة التعذيب لتكتشف بعدها أنه بقدرة الله كما ذكرت لم تصب بأى أذى.

ثم تحكى عن السياط والصلب وتدنيس القرآن وصلب المساجين.

لم أستطع إكمال اللقاء وقد جذبتنى عايدة دافعة إياى الى حيث يقودنا الطريق الى محطة القطار،كنت واجمة ساهمة تكاد تلتف ساقاى وكأنى فى خدر مثلما رأيت إبراهيم فى يوم كان فيه مخدرا.

كانت عايدة تبتكر المواقف المضحكة ولكنى لم أكن أكاد أفهم ما تقول.

لم تمر ليلة علىّ كما كانت تلك الليلة ، ما تكاد عينى تغفل حتى أرى السياط والكلاب وأسمع الصياح والعويل أفيق وأنا أصرخ:

- حرام عليكم حرام!

كانت ثريا أول ما رأت عيناى وأحسها وجهى وهى تتحسسه ربما أصابتنى الحمى.

حين أحست ثريا أنى مفتوحة العينين سألتنى بحسرة وعطف معا:

-فيه إيه يا إيمان؟

لم أكن قادرة على الرد أو راغبة فيه حتى أتت عايدة صباحا تصحبنى كما اعتادت للذهاب للكلية فقصت على ثريا ما كان من أمر اللقاء.

جلجلت ضحكاتها وزال عنها قلقها وهى تقول:

-يا هبلة هوا كل حاجة تسمعيها تصدقيها ؟

الست دى كدابة يعنى هيا مثلا سيدنا إبراهيم عشان عشرين كلب ينهشوا لحمها وبعد كده تطلع مفيش خدش؟

يا حبيبتى حاولى متصدقيش كل اللى تسمعيه! يا حبيبتى لو سألتى كل اللى فى البلد عن عبد الناصر هيقولولك ده نبى ! فكرى يا حبيبتى فى اللى تسمعيه مش كل الناس زيك كده ع الفطرة!

وكأن ريحا باردة أزالت ما بى من قيظ ما أخبرت به تلك السيدة فى اليوم السابق، وظلت كلمة كذابة تصول وتجول فى رأسى ؟

كيف يمكن لهذه السيدة أن تدعى ما ادعته وهى تعلم أنه كذب وافتراء ؟ ولكنه بالتأكيد كذب وافتراء فلو كان هذا ماحدث لها فلقد كان أصحاب رسول الله يعذبون وتظهر آثار التعذيب عليهم ويراهم الناس يعذبون هى لابد كاذبة ومدعية!

وما بال الحشد الكبير الذى اجتمع لسماع ما لابد أنهم سمعوه من قبل وآمنوا بصدقه !

على عجل ارتديت ما أعدته عايدة من ثياب بعد أن أرضعت أمل.

***

ماكادت امتحانات نصف العام تحط أوزارها وقد أبليت بها بلاءً حسنا، حتى كانت لافتات تملأ جدران الكلية تعلن عن حفل موسيقى وغنائى، يحييه مجموعة من المطربين والفنانين الذين طالما سمعت لهم فى المذياع وكنت أظنهم مجرد أصوات، لا أجسام تحيا وتطل على الجماهير حقيقة.

كانت لى رغبة وشهوة الحضور لأرى كيف يكون الغناء، وكيف تكون ملامح من تخيلتهم من خلال ما وصلنى من أصواتهم.

كانت عايدة بمثل شغفى للحضور مشجعة ومحفزة لى كى أصحبها، وكأنها كانت خائفة أن أخذلها فلقد كان الحفل ليلا ولم نكن قد قضينا ليلة أو بعض ليلة إلا فى بيوتنا.

كانت حماسة ثريا بمثل ماتحمسنا له وهى التى لم تغادر المدينة إلى أى مدينة أخرى من قبل.

فاجأتنا ثريا بالقول أن لابد أن نصحب أمى وحماتى، فلابد أنهن فى حاجة لرؤية الحفل الذى لم يتخيلنه أو يطرق بالهن.

كنت أنا وعايدة نلبس متشابهتين بينما ارتدت ثريا ما كنت قد اشتريته لها من القسط الأول للمكافأة، وجاءت أمى بجلباب أسود وكان نظيفا مرتبا بينما اعتذرت حماتى عن المجيء.

كانت ثريا تستحثنا على الذهاب مبكرا حتى نرى القادمين قبل الحفل ونحظى بمقعد فى المقدمة.

كان وصولنا بعد العصر وقد أعلن عن بداية الحفل فى الثامنة مساءً.

مالت الشمس فى ربعها الأخير وقد أرسلت طراوة وحبورًا، كنت أظنها ترسل قبلات التمنى بسهرة ممتعة لم نتخيلها أو يراودنا حلم بها من قبل.

كانت أعيننا وأجسادنا تدور كما يدور عقرب الثوانى فى ساعة الحائط علنا نظفر برؤية القادمين، وقد انشغل نفر كثير بترتيب المقاعد فى السرادق الذى أعد قبل وصولنا.

انصرفت الشمس مودعة وجاء الليل مبتسما متورد

الخدود بفعل الأضواء التى ملأت المكان، وجىء بلافتة كبيرة من قماش تولى نفر وضعها فى خلفية المسرح.

سمح لنا بالدخول إلى السرادق فالتصقت أجسادنا درعا يحمى أمى أمامنا حاملة أمل من طوفان من بشر يتسابقون للوصول للمقاعد الأمامية فارتددنا للخلف خوفا من هلاك تحت أقدام المتشوقين لما نشتاق.

لم يبق على الحفل إلاساعة أو أقل قليلا وأعيننا شاخصة إلى المسرح الكبير.

ما كادت أصوات لموسيقى عذبة تصل إلى مسامعنا من خلال مكبرات الصوت التى وضعت على جانبى المسرح حتى كان السرادق من خلفه يشتعل وأصوات جلبة وصراخ من خلفنا وولى الجمع الذى تسابق فى دخول السرادق فرارًا، نظرت خلفى فإذا بجيش من ذوى الذقون الطويلة التى تشبه ذقن إبراهيم بالهراوات تنهال على المحتفلين، لم ترحم صغيرا أو كبيرا، ونال أمى ضربة أسقطت أمل من يديها فتلقفتها يد قبل أن تسقط أرضا وتدوسها الأقدام ، كانت يد الدكتور إسلام.

***

حين أصبحنا فى مأمن من الضباع الجائعة صحبنا

الدكتور إسلام إلى مكتبه الذى شاهدته فى اليوم الأول لذهابى إلى الجامعة وبعد أول محاضرة كان يردد فيها سبحان الله الخالق.

كنت أسمع بكاء الليل وأرى دموعه ونحن عائدين وقد مات فى أحضاننا شوق وأمنيات، كما مات قبلا عمرٌ قد كان فى حماية أبى وأمل فى بهاء.

كانت يد عايدة تتأبط كتفى.

ما أن أطل علىّ وجه بهاء حتى ظننتها يده التى تتأبطنى، ولكن وجه بهاء اختفى حين تمثل أمام عينى ما رأيته من جيش، كلهم إبراهيم الذى اختفى لشهور حتى كدت أظن أنى لن أراه.

ظللت أتقلب فى سريرى كما تتقلب الأفكار فى رأسى وأنا أرى إسلاما لم أعرفه، وإيمانا لم يخبرنى به أبى فقد كان أبى يسمع المطربين والمطربات، كما يسمع المواويل والتواشيح الدينية التى تصحبها الموسيقى.

تذكرت أيضا ما قاله لي أبى حين سألته مالحرام وما الحلال وإجابته أن الحرام هو ما أخاف أن أفصح للناس به

كم كانت إجابة أبى بسيطة بساطة حياته وبساطة قلبه

إذ لم أذكره يوما أَغضب أحد أوغضب من أحد.

لعل ما شغلنى وأرقنى قد شغل أيضا ثريا حين وجدتها تتلصص على مخدعى ولما تيقنت أن النعاس لم يمر على عينى بادرتنى بالكلام :

-إنت لسه صاحية ؟

- وإنت ليه صاحية يا ثريا ؟

- الناس دول منين؟ زمايلك فى الكلية يا إيمان ؟

- معرفش حد منهم يا ثريا وكمان أعمارهم مش من أعمارنا !

-هى الناس دى مفكرة إن اللى عملوه ده إسلام ؟

-ده اللى شاغلنى يا ثريا كإن فيه إسلام إحنا منعرفوش !

-طيب يا حبيبتى نامى بس خلى بالك من نفسك وعيشى زى ما انتِ!

لست أدرى لماذا أحسست أن ثريا لا تطمئننى بقدر ما تطمئن نفسها وأن ما شغلنى قد شغلها وما أحزننى أحزنها ولكنها تركتنى الى فراشها.

***

غرد صوت المؤذن لصلاة الفجر وامتلأت الدنيا بأصوات الملائكة حين سمعت صوت الإمام (اللهم اهدنا فيمن هديت، وتولنا فيمن توليت، وقنا واصرف عنا شر ما قضيت، إنك سبحانك تقضي بالحق، ولا يقضى عليك)

خفت صوت الإمام وتراقصت أمامى أشباح الشياطين بالهراوات كالتى كانت فى أيدى من أحرقوا السرادق وفضوا جموع المحتفلين.

أصابنى الفزع وحملت أمل فرارا من جموع الشياطين التى احتلت غرفتى لأجدنى أمام الحظيرة التى آوتها خطاب بهاء الثانى فكأنى رأيت البقرة ترشدنى إليها وتمسح برأسها كتفى وكأنها تقول لا تخافى.

مال ظل البيت حين أشرقت الشمس مشيرا إلى بيت أمى فتبعته وكانت ثريا قد سبقتنى انتظارا لقدوم الدارسين للقرآن ومبادىء الكتابة والقراءة والحساب، وكأن قدمى تسوقنى إلى حيث الشق فى الجدار حيث خطاب بهاء الأول لأجدنى أردد بصوت قد يسمعه غيرى: أين روحك يابهاء وقد وعدتنى أن لا تغادر؟

كان صوت عايدة وهى تربت على كتفى وتقول :

- أوعي تكونى زعلتي من اللى حصل امبارح، كابوس وأكيد

هينزاح يا إيمان!

كأن روح بهاء قد غمرتنى عندما استدعيتها فنطقت بلسان عايدة التى لم أرها وهى تدخل البيت ولم أحسها حين وقفت خلفى ورأسها وهو يعلو كتفى.

كان جلوسى أمام الدارسين جالسة جلسة أبى سامعة ومصححة آيات القرآن كما لو كان نهرا اغتسلت فيه من كل همومى، ولم أعد أرى ما رأيت فى تلك الليلة.

كانت أعداد الدارسين قد زادت حتى ضاق بهم البيت وضاق بهم النهار، حتى أنى أشفقت على ثريا كيف احتملت ما احتملت وأنا منشغلة بالدرس والمحاضرات، والسفر إلى الجامعة ذهابا وإيابا.

الفصل السادس

أوشكت إجازة منتصف العام على الرحيل واقترب موعد الذهاب للجامعة وقد انشغلت بترتيب ثيابى وبعض الكتب التى أحتاجها.

كان الوقت ليلا، وكاد الليل أن ينتصف حين كنت أضع المكواة لأفرد ما تكسر من ثيابى؛ فإذا بصوت أسقط المكواة حين اضطربت يداى فقد كان صوت إبراهيم.

إنزويت فى ركن من أركان الغرفة وكأنه حلم قبيح، أفاقنى منه احتراق ما كنت أعتنى به من ملابس.

بعد أن هدأ صوت حماتى باكية وهى تحمد الله على عودة إبراهيم، تناهى إلى سمعى سؤالها :

-مين دى يا إبراهيم ؟

- زوجة ثانية إن شاء الله!

- طيب واللى جوا دى عملت فيك إيه؟

-دا حقى يا ولية، حقى أتجوز أربعة !

احتضنت أمل فى صدرى وكأنى أتخذها درعا وأنا خائفة مرتعدة يتوالى فى أذنى طنين كلمة (يلا)

كنت قد نسيت أو تناسيت أن لى زوجا قد يعود وها قد عاد.

امتدت يد أمل تتحسس وجهى وكأنها تزيل مابدا من خوف.

تفتحت أزهار الليل وهدأت عواصفه حين تسللت حماتى إلى غرفتى وهى تقول :

-خلينى أبات معاك الليلة يا إيمان!

لست أدرى أكنت فرحة أو مستهزئة من وجود تلك المرأة وأنا أتخيله بوجهه الموحش وهو يقول:

- يلا يا بت !

فى الصباح صحوت على صوت ثريا وكانت تبيت فى بيت أمى وهى تسأل حماتى عن أمل وعنى :

-فين البنت أمل وفين إيمان ؟

- اتفضلى يا حبيبتى بس أصل إبراهيم جه امبارح !

- طيب أنا آسفه أنا رايحة أشوف الأولاد وابقي سلميلى

عليها !

كان ضحكى فى نفسى كرجع صوت الماء من الجرة الصغيرة متقطعا وأنا أقول فى نفسى :

-مسكينة تلك الزهرة البرية وقد تخيلت أنى كنت فى أحضان زوجى أو مازلت.

انشغلت بتلك الزوجة الجديدة وكيف أنها لابد ذائقة ما ذقته طويلا، وتخيلت أن لابد أنه صفعها مثل ما صفعنى مرارا، وارتعدت فرائصى حين تذكرت تلك الليلة التى تحلقت حولى النساء ليعمل فى جسدى مخالبه.

تذكرت المستشفى وعودتى أقدم رجلا وأؤخر أخرى، والنسوة اللاتى اتشحن بالسواد خارجة من بيت بهاء.

كانت المرة الأولى التى أبكى فيها بهاء، رغم أن حزنى على بهاء لم يكن أكثر ولكن دموعا قد انسابت وقد كانت حبيسة الألم والعذاب.

لم يمت بهاء مرة ولكنه مات مرات ومرات حين أذكره، وهو حى لم يمت حين أستدعيه بأفكارى ،حى مازال يتأبط خصر أبى أو ذراعه ذاهبا للمسجد أو آيبا.

***

لم تكن الساعة قد جاوزت العاشرة صباحا حين تسللت الى الصالة المؤدية الى دورة المياه تاركة أمل وقد راحت فى نوم عميق وكان لابد لى أن أمر على غرف البيت بأبوابها المتراصة على صحن الصالة، وقد كانت أبواب غرفة حماتى مفتوحة، بينما كانت حماتى منشغلة بغسل بعض الأطباق.

لم أكن أنوى السؤال وتكفلت حماتى بالرد:

-المحروس خد المحروسة وراحوا معرفش فين حتى من من غير ما يسلم.

كانت سعادتى لا توصف وقد كنت قلقة من أن يمنعنى وجوده عن الذهاب للجامعة، وتذكرت ما احترق من ملابسى وقد كنت أعدها للذهاب ولكنى تذكرت ما كان يردده أبى فى مثل ما حدث(أخد الشر وراح)

عندما ذهبت لبيت أمى حيث كانت ثريا جالسة جلستى يضيىء وجهها بأضواء، لا أعرف من أين يأتى الضوء فكل مافيها مضىء، حتى كأنى أرى عصا أبى وكانت بيديها تضىء، كما لو أنى لم أرها من قبل.

استقبلتنى ثريا بفرح وتهلال وكأنى قد غبت عنها دهرا :

-سيبتى جوزك وجيتى ليه يا إيمان ؟

ابتسمت ابتسامة خفيفة ولم أشأ الرد فبادرتنى :

-لا دانت لازم تحكيلى !

وكأنى أنفض ما على فكرى من غبار، أخبرتها أنى لم أره وأنى بالكاد سمعت صوته وأخبرتها بما كان من زيجة ثانية وأخبرتها بما أخبرتنى به حماتى.

-أنا مش عارفة هى كل الرجالة كده عنيهم فارغة ؟ يا إيمان ده لو طلب من ربنا يفصّل له زوجة على هواه مكانش حتى يطلب نص اللى انت فيه ،جمال وأدب وعلم كمان.

جلست دون رد على الأريكة وقد أخلتها ثريا وتابعت ما كانت قد بدأته.

فاجأتنى ثريا حين قالت :

-إيمان ! أنا عندى فكرة ياريت توافقينى عليها !

- فكرة إيه يا ثريا ؟

-إحنا بنعلم الأطفال القراءة والكتابة ونحفظهم آيات القرآن، ليه منوسعش شغلنا وندرس مبادىء العلوم ؟

- بس يا ثريا احنا مش قادرين على الأطفال اللى عندنا،

وانت صعبانة عليا نجيب منين وقت ولا مكان ؟

- طيب بس فكرى وكل شىء يتدبر بإذن الله ؟

كانت المرة الأولى التى نستهل الفصل الدراسى غير متشابه ملبسنا ونحن منزلقتان إلى داخل المدرج، فما كنت قد أعددته مشابه لما ترتديه عايدة قد احترق عندما سمعت صوت إبراهيم ، شىء ألقى الكآبة والقلق فى نفسى حين أحسست أنه لابد أن يفرقنا من خارجنا شىء، شىء لا نعد له عدة ولا نتمناه ولكنه القدر ، القدر الذى انتزع منى يوما أبى وانتزع منى حلمى ببهاء.

القدر الذى لابد أن نمتثل لأمره، وإن كرهنا فعله.

وكأن ما قابلنا ونحن نتهيأ للعودة بعد انتهاء المحاضرات فى ذات المكان قد أزال عنى غضبى من القدر وفعلته حين وقعت عينانا على الدكتور إسلام وكان شاخصا إلينا مبتسما.

كان صوتى أسرع بالترحيب وإن سبقتنى أقدام عايدة مهرولة نحوه.

لم يكن الدكتور إسلام فى حاجة لإلحاح لصعودنا معه حيث معمل التحاليل الطبية فقد كنت فى حاجة للجلوس أمامه فى غير مدرج الدرس وأنا أتخيل شفتاه وهى تنطق

(سبحان الله الخالق).

دار الحديث عن الكلية وعن الدراسة مبديا ترحيبه بمساعدتنا فى فهم ما نريده منه ثم جاء الحديث عن الإيمان وعن الله.

وكأنه اكتنز ما اكتنز حتى ينتهى اللقاء بقوله :

-شوفو يادكاترة دراسة الطب والعلوم أهم فى الوصول لحقيقة الدين وحقيقة الله من كتب الدين وآراء الفقهاء.

***

كانت أقدامى تتراقص فرحة وأنا مقبلة على ثريا وهى تعتلى الدكة الخشبية ممسكة بعصا أبى وقد أشرق وجهها بابتسامة محبوبة وهى ترى إشراقة وجهى مترقبة ما سوف يخرج من فمى من كلمات.

انتفضت ثريا معانقة ومقبلة وجهى وقد أخبرتها موافقتى على ما اقترحت من تدريس مبادىء العلوم.

سيطرت فكرة تدريس العلوم على أفكارى ليلتها متحمسة تارة ومحبطة تارة أخرى حين أحسب حساب المكان الذى ضاق بطالبى القرآن والقراءة والكتابة ومبادىء الحساب، وظل يشغلنى أين ومن يَدرس ومن يُدرِّس؟

لم تكد الشمس تنتفض من نومها حتى كان طرق بالباب، أيقظنى لأرى من الطارق.

كان صوت أمى مضطربا وهى تتعجلنى.

ما كادت أمى تخطو الى الداخل حتى أبلغتنى جزعة وهى تقول:

-الفجر جه شيخ الغفر ومعاه اتنين عساكر، وجروا ثريا من شعرها بعد ما سمعوها أوسخ كلام، وخادوها لبيت الطاعة.

- بيت الطاعة ؟ إيه هوا بيت الطاعة ده ؟ إزاى الحكومة تجبر إنسان يتحمل الذل والمهانة دى ؟

-بيقولو الشرع كده لازم تتهان وترجع لجوزها لأنه معاه حكم بالطاعة.

- طاعة يعنى إيه طاعة ؟ دا كده استعباد مش جواز فين المودة والرحمة اللى فى القرآن، وفين عاشروهن بالمعروف أو سرحوهن بالإحسان؟

تخلفت عن الذهاب إلى الجامعة وصحبتنى عايدة قاصدين محامى فى المدينة علنا نجد حلا لتلك الزهرة التى تم قطافها مرتين.

فاجأنا المحامى بأنه لا يملك حلا إلا بتوكيل من صاحبة المظلمة.

رجعنا الى البيت نجر أذيال الخيبة والهزيمة، وفكرى موزع بين المسكينة المحتجزة كرها، وبين الأطفال الذين لابد أنهم حضروا كعادتهم يوميا.

كان باب البيت مشرعا.

قبل أن تخطوا أقدامى للداخل كانت ثريا تجلس جلستها ممسكة بنفس العصا وتحلق حولها من الأطفال ما تحلق.

احتضنت ثريا طويلا وأنا أكاد أبتلعها بصدرى وجرت الدموع حتى ابتل كتفاها حتى نطقت:

-متخافيش عليا يا إيمان لو جه جيش بحاله أنا مش هعيش معاه تانى !

- طيب يا حبيبتى قومى انتى استريحى ونامى عشان انت مانمتيش!

-مقدرش أنام لأن الأستاذ عبد العليم جاى الوقت !

-الأستاذ عبد العليم بتاع العلوم ؟

-أيوه الأستاذ عبد العليم طلع ع المعاش وبقى فاضى وأنا

كلمته واتحمس قوى للفكرة لدرجة إنه قال هيشتغل مجانا ، لكن أنا أصريت إنه ياخد نص الإيراد ووافق.

كان الأستاذ عبد العليم رجلاً قصير القامة معتدل الهيئة مبتسما فى حزم أنيق الملبس، حريصا على ارتداء حلة لا تتغير ورابطة عنق لا تتغير ولكن كان لباسه دائما نظيفا ،كان بياض شعره كأنه مطلى لا يشوبه عكار، بياض يشبه القميص الذى كان يرتديه داخل الحلة.

حينها تذكرت الأستاذ عبد العليم وتذكرت يوم أن انتزعنى من البيت متسخة ثيابى وأوقفنى رافعة كلتا يدى ووجهى للسبورة لأنى أخطأت فى جزء من مائة جزء فى امتحان العلوم ، وتذكرت الدراجة التى حملنى عليها خلفه وتذكرت أمنيتى بدراجة مثل دراجة الأستاذ عبد العليم.

جرت ابتسامة على شفتى بعد يوم بدا كئيبا فى أوله.

أطل شعاع من ضوء مع إطلالة الأستاذ عبد العليم وجذبنى الضوء سريعا حتى كدت أكون فى أحضانه كما كان وأنا طفلة مازلت فى المدرسة الابتدائية، وانتظرت أن يقبلنى فى رأسى كما كان ولكنه اكتفى بمصافحتى.

لم يكن قد تغير فى بدنه الكثير إلا ابتسامة الشموخ والحسم، فقد تبدلت لابتسامة فيها من الخجل مالم أتعوده منه.

استهل الأستاذ عبد العليم كلماته بقوله أستاذة إيمان!

كانت كلمات ثريا أسرع من استغرابى وقد قالت:

-دكتورة إيمان يا أستاذ عبد العليم ،بنتك إيمان فى كلية الطب !

عاد له ماعهدته فيه وهو يجرنى لأحضانه وهو يقول :

-الحمد لله ياإيمان قصدى يا دكتورة إيمان كنت حزين قوى عليكى يا بنتى ، احكيلى!

أفاضت ثريا فى شرح ماعلمته منى وصار الحديث عن العلوم وتدريس العلوم بجانب القرآن والقراءة والكتابة ومبادىء الحساب.

-شوفو يابنات اسمحولى أقول لكم زى ما كنت بقول لكم زمان، العلوم بالنسبة ليا كل حياتى أنا فضلت أربعين سنة أدرس العلوم، وبعد ما طلعت معاش بدرس العلوم كل ليلة فى أحلامى.

ثم ضاحكا :

-والله يابناتى أنا ساعات وأنا صاحى بدرس العلوم وأتخيل

إن فيه طلبه قدامى، وساعات أزعق فيهم اللى يشوفنى يقول عليا مجنون ، مشروعكم ده أحيانى من تانى بس العلوم مش زى القراية والكتابة والحساب اللى الكل بيبقى عاوز يتعلمهم، العلوم مفيش حد هيقبل عليها إلا اللى بيدرسها ،يعنى هتبقى زى الدروس الخصوصية، وأنا عاوز أدرسها ببلاش كفاية إني أرجع تانى أقف قدام التلامذه زى ما طول عمرى كنت عايش.

أسرعت فى الرد :

-يا أستاذ عبد العليم احنا مش بناخد من الناس إلا اللى هما بيدفعوه عن طيب خاطر، ساعات بالزرعة وساعات بالشهر، عمرنا ما قلنا ناخد كام والحمد لله بقى عندنا اللى مكفينا وزيادة وأنت هتشاركنا زيك زينا فى كل حاجة!

- وأنا بما إنكم بناتى متبرع لكم بنصيبى بس يلا خلونى أشتغل ،المعاش ده موت قبل الموت وأنتم بتحيونى من جديد وده كفاية!

راح ذهنى يفتش عن المعضلة الأخرى بعد أن اتفقنا من يَدرس ومن يُدرِّس بقى السؤال أين وقد امتلأت دار أمى ولم يبق منها غير حجرة تشارك ثريا أمى بها وقد اكتظت الدار بالدارسين.

لعل ثريا قد قرأت ما بنفسى وهى تقول:

- إيه رأيك يا ثريا لو نضفنا حظيرة من بيتك وجعلناها

لدراسة العلوم ؟

اطلت كلمح البرق أمام عينى تلك الحظيرة التى أودعتها خطاب بهاء الثانى وأطلت على البقرة التى ذبحت لدفاعها عنى وكأنها تبتسم مرحبة ثم أطلت بعد قليل خيبة الأمل تتملكنى ،كيف والدار وإن كانت دار زوجى الذى لا أدرى متى يعود ودار حماتى التى لا أعرف هل توافق أو تستنكر ما نطلب.

***

بعد انتهاء إحدى المحاضرات أحسست بيد تجذبنى من الخلف، استدرت جزعة

كانت سارة التى أصبحت أعرفها رغم نقابها.

بعد قليل من الحديث عن الكلية والمحاضرات دعتنى سارة لحضور محاضرات لشيخ علامة وحجة فى الإسلام، ليبين لى بالتفصيل واجبات المرأة الصالحة فى الإسلام، وما المطلوب من المرأة أن تفعله حتى تنال رضى الله ويحسن الله لها فى الدنيا والآخرة.

لم يكن بإمكانى تلبية دعوتها وقد تركت ثريا وقد زاد عليها عبؤها فوعدتها بمرة قادمة.

***

كان يوم الخميس وقد بدأ العمال فى تحويل الحظيرة إلى حجرة فسيحة بباب على الشارع يعزلها عن البيت لجعلها فصلا لتدريس العلوم وحمدت الله أن لم يكن الباب فى موضع ماأودعت فيه سرى، وقد كانت حماتى متحمسة بعد أن استأجرنا منها مالم تعد الدار بحاجة إليه.

أطل المساء بوجه قبيح كما سبقه الخميس الذى قبله عندما سمعت صوت إبراهيم وهو يرد على سؤال أمه :

-زوجة ثانية إن شاء الله !

-وبتاعة الأسبوع اللى فات راحت فين؟

- طلقتها !

-طلقتها وانت يادوب عشت معاها ليلة؟

- هكذا شاء الله!

لم أكن الليلة جزعة مثل ما كان فى الخميس الفائت.

فى الصباح كانت الدار خالية من إبراهيم وكما جاء راح لا أدرى ولم تدرِ حماتى أين ذهب.

***

كان إبراهيم قد أتى بأربع نساء، فى كل أسبوع واحدة، وفى كل أسبوع تسأله أمه فيرد زوجة ثانية إن شاء الله.

لم يكن يعنينى الأمر كل ما كان يعنينى أنه لن يأتينى ولم أعد أنتظر بخوف كلمة (يلا)القبيحة إلى نفسى.

فاتحتنى ثريا فى أمر إبراهيم على غير عادتها فحكيت لها ضاحكة عن زيجاته كل أسبوع، وكيف أنه يتزوج كل أسبوع زوجة فضربت على صدرها فى جزع وقالت:

-كده عيشتك معاه تبقى حرام يبقى كده متجوز خمسة!

-لا ماهو بيقول إنه بيطلقهم !

- حتى لو طلق أول واحدة أو أى واحدة منهم الزوجة تفضل على ذمة جوزها بعد الطلاق لحد ماتخلص عدتها، يعنى على الأقل تلات شهور، إلا لو كان ده زنا وهو بيكدب ويقول زواج ودى مصيبة تانية يا إيمان.

تبدلت ابتسامتى إلى خوف وحسرة إذن هو الشيطان الذى استعصى عليه هزيمتى فأوقعنى فى المحرم دون أن أدرى ، لقد أبعدنى الشيطان عن رفقة النبى والحسين دون ذنب ارتكبته أو علمته.

غافلنى النوم بعد طول السهاد أفكر فيما أنا فيه من خطيئة لم أرتكبها ولم تخطر لى على بال أفكر فى ما عساى أن أفعل حتى كان صوت الإمام يردد ما كنت أنتظره فجر كل يوم (اللهم اهدنا فيمن هديت).

كنت قلقة لأن الله لم يأتنى كما كان يأتينى ما أحسست أن الشيطان قد غلبنى.

قضيت الليلة فى بيت أمى نتشارك ثلاثتنا الحجرة الضيقة

خشية أن تكون عودتى لبيت إبراهيم إقرارا منى بمرافقة زوج لم يعد زوجى كما أخبرتنى ثريا.

***

لم أنتظر انتهاء المحاضرة وكنت أنا من يبحث عن سارة.

قبل أن القى عليها السلام كما كانت تفعل سألتها فى عجلة:

-مش كنت قولتيلى أحضر معاكى درس دينى عشان أعرف واجبات الزوجة الصالحة ؟

ثم أتبعت على عجل :

-فيه درس النهاردة؟

-فيه درس كل يوم بس لابد تسترى كل جسمك لكن قدام الشيخ تكشفى وشك !

- كنت كما كان معظم الطالبات ألبس ما تحت الركبة ولم يكد يظهر من جسمى إلا فوق القدم بسنتيمترات قليلة وكنت كاشفة شعرى.

كان حزنى عميقا وأنا لا أستطيع مقابلة الشيخ وقد كان يشغلنى ما أنا فيه.

وكأن سارة قد أعدت عدتها وهى تخبرنى أن لا أجزع فلديها ما يمكن أن أقابل به الشيخ.

انفرجت أساريرى وأنا أشكرها على ما تفعله من أجلى.

بعد انتهاء المحاضرة كان لابد لى أن أخبر عايدة بما كان بينى وبين سارة.

أصرت عايدة على مرافقتى وقالت فى حسم وقد تبدل وجهها :

- مش هتروحى لوحدك !

بس يا عايدة لابد تغطى جسمك وشعرك عشان الشيخ مش بيقابل إلا اللى مغطى جسمه!

-يبقى مش هتروحى النهاردة !

بس يا عايدة سارة جابت لى اللبس اللى هقابل بيه الشيخ!-

-الشيوخ كتير مش لازم الشيخ ده !

تبدل وجه عايدة وهى تحدثنى وكأنه وجه بهاء حتى أنى أطلت فيه التأمل وقد عاد بهاء وكأن وفاته لم تكن إلا كابوسًا أتانى وقد تخلصت منه.

لم يكن أمامى إلا الانصياع لأمر بهاء وقد عاد حيا.

اختفى وجه بهاء وتبدل بوجه عايدة حين كانت سارة فى مواجهتنا، وكأنها كانت تتلصص وقد علمت مادار بينى وبين عايدة وأسرعت بالقول:

-يلا يا عايدة يلا يا إيمان أنا جهزت لكم اللبس اللى هاتقابلوا بيه الشيخ!

***

فى حجرة منخفضة يعلوها الشارع ببضع درجات أدخلتنا سارة.

فى حجرة لا تسع أكثر من عشرين من الأشخاص ملتصقين أجلستنا سارة.

كان كل من فى الحجرة من النساء كاشفات الوجه، يلبسن ما نلبس وكأن سارة قد ألبست الجميع بنفس ما ألبستنا.

حاولت سارة حشرنا بين النساء لنكون الأقرب لما سوف يكون الشيخ.

كان أمامنا حين جلسنا سجادة صغيرة وأمامها باب ضيق ،كان من السهل علينا أن نعرف أنه منخفض عما كنا نجلس، وكأنه سرداب يمتد تحت الأرض كما كان يحكى لنا فى الصغر، عن ذلك السرداب الذى تسكنه العفاريت.

تحدقت عيناى فى وجه عايدة وتحدقت عينا عايدة فى عينى وكأن عيوننا تتعاتب.

عندما تحرك الجمع من النساء حركة فى نفس المكان وكأن كل منهن تحاول النهوض ولا تستطيع ،ظهر من الباب الضيق جلباب أبيض وعمامة وشال أبيض.

كدت أصرخ من فزعى وأنا أرى ما يشبه إبراهيم وأصحابه الذين كانوا قد ملأوا البيت لأيام بعد عودته من سجنه.

صارت دقات قلبى تتسارع وأنا أرى العمامة تعلو مع اعتلاء الدرج.

صارت جلسة الشيخ أمامى وعايدة حتى كادت ركبتيه المربعتين تلمس ركبتينا.

كل مافى جسدى كان يرتجف وأنا أحول نظرى نحو عايدة وكأنى أهرب من شبح إبراهيم لطيف بهاء.

أول ما نطق به الشيخ :

-رحبوا بأختيكم إيمان وعايدة فى خطوهما الأول فى طريق الله !

صاح كل من الغرفة من النساء الله أكبر الله أكبر.

كنا ومازلنا نرتجف من الخوف مرغمتين على الجلوس حتى ينصرف الشيخ.

لم يكن حديث الشيخ عن أى واجبات للزوج أو الزوجة، بل كان حديثا عن الدولة الكافرة التى لا تقيم حدود الله وتتعامل بالربا، ويحكمها قانون كافر عوضا عن شريعة الإسلام وشرع الله ،والحاكم الكافر الذى يدمن الخمر وامرأة تحكمنا من خلفه، وناس فى جاهلية أسوأ من جاهليتهم الأولى وإن صلوا وإن صاموا، ودعوة للتمرد على الكفر وإقامة دولة الإسلام من جديد كما بدأها رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ظلت أفكارى تغدو وتروح يتراءى لى أبى خارجا من المسجد أو ذاهبًا ويتراءى لى بهاء متأبطا يده ثم تقتحمنى كلمات إبراهيم عن العلم الكافر، ثم ما كان من احتياله على جيوب المرضى بعلم لا يعلمه، ودواء لا يداوى.

كنت مرتبكة ويرتعد لسانى وفمى حين سأل موجها لى الخطاب :

-الأخت إيمان عاوزة تسأل عن حاجة؟

- بحروف مبعثرة جاهدت أن أضع الحرف بجوار الحرف حتى يصل ما كان يؤرقنى بالأمس.

كان الرد حادا وقاطعا حين قال:

- زوجك كافر وزواجك منه فاسد ولا عدة لك فليس

للكافر على زوجته المؤمنة من عدة.

لاحظت نظرات الشيخ إليَّ حين همت النساء بالانصراف تكاد تقتحم ما تخفيه الملابس والأغطية.

لابد لنا أن نكون آخر من يخرج من هذه الغرفة التى كانوا يسمونها الزاوية ،وقد أجلستنا سارة فى المكان البعيد عن الباب.

***

أحسست بالهواء يمرح فى صدرى ما خرجت رأسى من هذا المكان الكئيب الذى زاد كآبته هذا الشيخ فى هيئة إبراهيم وهذا السرداب وكأنه وكر الشياطين.

أمسيت مشتتة الفكر وأنا بصحبة عايدة فى طريقنا للبيت، وقد جاء هذا الشيخ بحبر أسود يمحو به ما كان بحياتى وما كان من صلاة أبى وصلاة بهاء.

لابد أنه كاذب كما اعتقدت ثريا بكذب السيدة (زينب الغزالى)

أى كآبة تلك التى تدسها فى نفسى سارة.

اكتفت عايدة بالنظر إليَّ بين الحين والحين مبتسمة

ابتسامة قلقة.

هل كانت عايدة تخشى أن أصدق ماقاله الشيخ عن جاهليتنا، وهى تعلم أنها لابد أن تكون جاهلية بهاء كما هى جاهلية أبى وإن صاما وإن صلا.

حدثت ثريا حديث الشيخ وأظهرت لها قلقى واضطرابى وقد غطى التفكير فى حديثه عن جاهلية الناس ما كنت قد ذهبت لأجله.

كانت ثريا عاقدة الحاجبين مكشرة الوجه وهى تقول :

-إنت إيه اللى وداكى عند الراجل ده ؟

- كنت عاوزة أسأله عن موضوع إبراهيم وقالى إنه كافر وزواجك منه فاسد ومليش عدة منه !

- موضوع إبراهيم ده نسأل فيه شيخ من الأزهر ، مين وداكى؟

ما أن نطق لسانى باسم سارة حتى احمر وجهها فى غضب وهى تقول :

-أنا من الأول مش مستريحة للبنت دى ، لازم تبعدى عنها !

كان لابد لى أن أزور الشق بالجدار فيتسع قلبى ويزول ما

فيه من كآبة وأنا أقول فى نفسى :

-لابد أنك فى الجنة يابهاء تتأبط ذراع أبى.

***

صارحت حماتى بخوفى مع رغبة منى فى الإنفصال عن زوجى، حتى وإن مر ما يقرب من عام لم يقترب منى إبراهيم ولم يسمعنى كلمته الكريهة (يلا يا بت)

ردت حماتى بتأثر وهى تقول :

-هوا إنت عاوزة تتجوزى يا إيمان؟

فاجأنى سؤالها ولم أكن قط فكرت فى الزواج أو تخيلت لى زوجا ولم يكن أبدا يراودنى ما يراود الأنثى حين تحلم برجل.

-يا أمى أنا عمرى ما خطر ببالى الكلام ده أنا بس خايفة أكون بغضب ربنا وأنا زوجة لرجل له كل أسبوع زوجة!

-شوفى يا حبيبتى أنا طبعا فاهمه اللى إنت خايفة منه، وعارفة ان اللى بيعمله حرام، هوا وشلته بيحللوه، لكن قدام ربنا والناس إنت الزوجة الوحيدة، والحرام اللى هوا بيعمله يترد عليه هوا، ربنا مش هيحاسبك على ذنب غيرك بيعمله، مش إنت بتحفظى الناس القرآن وعارفة كلام ربنا "ولا تزرُ

وازرةٌ وزرَ أخرى"، لكن يا أم أمل لو إنت عاوزة تطلقى عشان تتجوزى غيره، أنا مش همنعك لكن البيت ده بيت أمل وإنت أم أمل.

أزالت كلمات حماتى عنى كل شكوكى ولم أكن متعجلة لسؤال شيخٍ أى شيخ من شيوخ الأزهر.

***

اقترب انتهاء العام الدراسى وكان دارسو العلوم قد زاد عددهم، حتى كاد أن يساوى أعداد دارسى القرآن، وكان الأستاذ عبد العليم لايكاد يعود إلى بيته إلا سويعات قليلة فى الليل بينما تولت أمى طعامه ثلاث مرات فى اليوم بعد أن تأبى فى البداية.

انتهى العام الدراسى وقد انصرف دارسو العلوم، انصرفوا فى استراحة كاستراحة المحارب، بينما استمر دارسو القرآن والقراءة والكتابة ومبادىء الحساب، وكان ما يُتبرع به أكثر كثيرا مما كنا نتخيله أو نخطط له.

لم يكن فى دراسة الطب فاصل من إجازة.

عند عودتى ومعى عايدة انحرفت بها إلى حيث المتجر الذى كنا قد تعودنا أن نكتسى منه وساعدتنى عايدة على شراء ما

يروق ثريا فهى وقود مانقوم به لولاها ما كان من نجاح صادفناه.

***

أتمت أمل عامها الأول وكانت قادرة على الوقوف والحركة منتصبة كما أن ملامحها قد ظهرت فى عيون من يراها وكانت تشبهنى تماما.

كنا نظن أن الأستاذ عبد العليم سوف يستريح كما استراح دارسوه ولكن الأستاذ عبد العليم كان مصرا فى أن يساعد ثريا وهو يقول أنه لن يستسلم للبقاء فى البيت.

كان الأستاذ عبد العليم ينتهز الفرص ليدرس العلوم حتى من خلال دروس الإملاء والحساب وحتى فى شرح بعض الآيات.

أثارت طريقة الأستاذعبد العليم إعجابى وإعجاب ثريا بل إنه قد أثار دهشتنا أن الأطفال الذين لم يتموا عامهم السادس يستوعبون ويسعدون بما يصل لآذانهم من علوم الأستاذ عبد العليم.

كثر مجىء الآباء والأمهات خصيصا لمديح ما كان يصلهم من أطفالهم وقد علمهم الأستاذ عبد العليم مبادىء الصحة

العامة والنظام والنظافة، حتى أن بعض الآباء وأحيانا الأمهات يجلسون مستمعين لما يقول الأستاذ عبد العليم ولا يبرحون حتى آخر كلمة من كلماته وكانت ثريا تخطف اللحظات للتعلم من الأستاذ عبد العليم.

***

استوقفتنى سارة حينما كنا منصرفين من محاضرة فى علم الأنسجة وهى تخبرنى أن الشيخ يسأل عنى ويود أن يرانى.

رفضت متحججة بما لدى من عمل يزيد عن دراستى، وقد انتابتنى كآبة ما عشته حين ذهبت إليه فى المرة السابقة.

فى الطريق كان لابد أن نمر فى الشارع حيث معمل الدكتور إسلام.

اقترحت عايدة أن نصعد لنلقى التحية.

قابلنا الدكتور إسلام بالباب ويبدو أنه مغادر. فلم تكن الممرضة التى دائما ما كانت فى مقابل الباب جالسة لاستقبال المترددين موجودة حيث عهدناها.

تأهبنا للنزول ولكن الدكتور إسلام دعانا بالحاح أن نبقى؛ حيث إن لديه ما يحب أن يقوله لنا.

سألنا الدكتور إسلام عن أحوال الدراسة ثم انتقل لسؤالى وكنت كعادتى مطأطأة الرأس من خجل:

- عاملة إيه فى حياتك يا إيمان وإزى بنتك الأمورة؟

طمأنته حامدة الله فالتقفت عايدة خيط الحديث تحكى ما كان من زوجى وما حدث من زيارتنا للشيخ لنستفتى.

أقلقنى حديث عايدة وقد كنت لا أود أن يعرف الدكتور إسلام ما أعانية.

تحولت نبرة الدكتور إسلام الى شىء من الحدة وشىء من الغضب وهو يقول :

-شوفى يابنتى! مش كل اللى بيتكلم فى الدين متدين ،ومش كل اللى بيدعى الإيمان مؤمن، الإيمان يابنتى خديه من جواكى إنت، اللى تستريحى له هوا الإيمان مدام مش بتسببى ألم لحد ! متخليش يابنتى حد يفكرلك إنت مش صغيرة ! الدين يابنتى هو المعاملة وربنا منزلش أنبياء إلا عشان الناس تعيش فى سلام وأمن، ربنا غنى عن كل اللى البشر بيعملوه، لكن الإنسان هوا اللى محتاج التراحم والعدل والمساواه ، عيشى لنفسك وبلاش تضرى غيرك، من حقك تنعمى بعملك وكفاحك، وخلى بالك من بنتك ،جوزك ربنا يسامحه أو يجازيه، عمله يتحاسب عليه وانت تتحاسبى على عملك انت.

لست أدرى لماذا أحسست أن صوت الدكتور إسلام هو صوت أبى وكأنه أبى قد عاد للحياة ليكمل لى ما كان دائما ناصحى.

اشتقت لأن أضع رأسى على صدره كما كنت أفعل بصدر أبى، ولكنى انتبهت فجرى الدمع من عينى ولم أعد أرى أو أسمع ما كان من حديث حتى وجدت عايدة تصحبنى مودعة وشاكرة.

الفصل السابع

بينما كنت مستغرقة فى تحفيظ القرآن لدارسيه فى الحجرة التى اقتطعناها من بيت زوجى وقد علا صوتى ببطء كلماتى حتى يعلم الأطفال مخارج كل حرف من حروف القرآن اقتحمت علينا سارة الدرس دون موعد وقد كنت لا أتمنى مجيئها.

دبت الحيرة فى نفسى وأنا لا أعلم إن كنت مرحبة بها أو متجاهلة.

بعد تردد قلت : أهلا ياسارة!

لم ترد سارة التحية وكانت فى عجلة تخبرنى أن هناك ضيوفا قد حضروا للقائى.

قبل أن أستفسر كان قد اقتحمنا رهط من ذوى الجلابيب البيضاء والعمامة البيضاء كلهم كانوا فى عينى إبراهيم.

لم يكن أمامى مفر فلقد كان للحجرة باب واحد قد سد بالمقتحمين.

تقدم أحدهم نحوى بعد أن قدمه الآخرون وعندما اقترب منى خطوات عرفته، فهذا هو الشيخ الذى رأيته فى الزاوية

المنخفضة والذى ذهبت إليه آملة فى اليقين فأغرقنى فى الشك والحيرة. كانت دقات قلبى تكاد تسمع من فى البلدة جميعا من خوف ورهبة، واختلطت فى عينى الصور وفى أذنى الأصوات حتى سمعته يقول:

-إنت يا أختي تدرسين القرآن فى زريبة والله لبئس ماتفعلين!

ثم تمادى فى وصف بيتنا من الداخل حجراته وزرائبه وكل المرافقين يصيح الله أكبر الله أكبر!

لم يكن عقلى الذى بدا ضيقا صغيرا قادرا على فهم ما يقول، وقد بدأ السؤال عن إبراهيم بن إسماعيل الذى وصفه بالكفر والضلال، متوعدا إياه بالهلاك طال الوقت أو قصر، وهددنى إن لم أعد فليس لى ولإبنتى إلا السبى والعبودية.

لم أدرِ كم مر من الوقت وأنا صامتة كالحجر وقد توقف الهواء فى صدرى، فلم أعد قادرة على النطق حين توعدنى أنى سأكون سبية بما أحمل، إن لم أعد للإسلام فى طريق بدأته ثم ارتددت عنه.

كانت اللحظات بطيئة قاتمة، وكأن نور النهار قد غادر بلا رجعة، واهتز المقعد من تحتى وكأنه يتقيأنى، ثم لم أدر شيئا

مما حدث.

عندما أفقت كنت متكأة على صدر ثريا مبتلة ثيابى وكأنى انتزعت من بحر عميق، وكانت أمى وحماتى وعايدة والأستاذ عبد العليم ونفر من أهل القرية، بصعوبة أدركت أن بعضهم كان يحمل العصى والهراوات.

لم تكن سارة أو أى من الجلابيب والعمائم البيضاء موجودين، وكأنه كان كابوسا أفقت منه للتو.

***

كان اليوم الذى افقت فيه من حمى لازمتنى لأسابيع انقطعت فيها عن الدراسة والمحاضرات أغفو أحيانا وأفيق أحيانا حتى جاء اليوم الذى أفقت فيه على يد تتحسس جبينى وكأنها كانت اليد التى أزالت كل مابى من ألم وتيه، كانت يد أبى كما ظننتها فتعلقت بها للحظات، وإذا بى أسال عن بهاء أما زال يتأبط يدك يا أبى ، جاءنى صوت عايدة باكية وهى تنادى:

- إيمان!

فتحت عيناى لأرى يد الدكتور إسلام تتفحص وجهى وشفتاى.

جاهدة حاولت أن أنتصب فى جلستى وأستر ما قد ظننت أنه انكشف من وجهى، تأملت الغرفة التى تأوينى فلم أكن أظن أن الدكتور إسلام إلا فى معمله أو فى الكلية أمام طلبته يردد بعد كل جزء سبحان الله الخالق.

نبهنى صوت ثريا وهى تقول :

-الحمد لله إنت إيدك مبروكة يا دكتور إسلام.

وصلت لدرجة من الوعى لأرى الأستاذ عبد العليم وقد انشغل بحقن أشياء، فى قارورة من المحاليل الطبية التى كان يتدلى منها ما اخترق جسدى ولم أنتبه له.

ظل الدكتور إسلام يزورنى يوميا طيلة خمسة أيام بعد إفاقتى، كنت بعدها قادرة على ما كنت أقدر عليه.

فى اليوم السادس جاءنى الدكتور إسلام فى الصباح الباكر على غير عادته، مشجعا لى أن أصحبه بسيارته الى حيث الكلية والمحاضرات.

بينما جلست عايدة فى المقعد الأمامى إلى جوار الدكتور إسلام كنت قد اتخذت مكانا فى المقعد الخلفى فقد كان أكثر اتساعا وراحة فى هذه السيارة التى ما كنت يوما أظن أنى مستقلة مثلها في اتساعها ورحابتها، تحسستها وأنا أذكر تلك

المقاعد الخشبية فى القطار الذى يقلنا يوميا ذهابا وإيابا.

***

كنت قد نسيت أمر سارة والشيخ والجلابيب البيضاء وأغطية الرأس البيضاء حتى تكلم الدكتور إسلام فأدركت أن عايدة أطلعته على ما كان.

رغم ماكان يبدو من كلمات الجدية والحزم فى كلمات الدكتور إسلام فقد أحسست بخدر وبهجة وهو يقول:

-إبعدى يا إيمان عن الناس دول ! دول خلو الإسلام الف إسلام كل واحد منهم له الإسلام اللى على هواه، خليكى على إسلامك اللى اتعلمتيه من أبوكى والناس الطيبين اللى فى البلد ، إعرفى الإسلام من جواكى ، الناس دى زى ما بيخبوا وجوههم بالدقن والنقاب بيخبوا الشر اللى جواهم بكلام كأنه هو الدين.

لم أكن قادرة على الرد وقد عقبت عايدة :

-سارة دى متديهاش وش تانى تجاهليها ومتخليش لها دور فى حياتك!

أيقظنى من خدرى التفاتة عايدة بنظرة يبدو فيها الاندهاش كما تبدو فيها السعادة حينما قلت :

-حاضر يابهاء !

كأن الأرض قد طويت طيا تجت أقدام السيارة وكأننا حملنا بساط الريح أو أتى بالكلية عفريت سليمان لأجدنى فى صحنها وكنت أتمنى أن يطول الطريق بصحبة عايدة وقد تخيلتها بهاء وصحبة الدكتور إسلام.

مر العام الدراسى ولم أعد أرى سارة وكأنها قد ذابت وتحللت أو أنها كانت عدة مشاهد فى فيلم انتهى عرضه.

***

بينما كنت منهمكة فى الشرح والتدريس فى حجرة من حجرات بيت أمى تاركة ثريا بدهليز البيت ومعها مثل ما معى من الأطفال اقتحمتنى زغرودة التقطتنى كما يلتقط المغناطيس قطعة صغيرة من حديد لأجدنى فى الصالة وقد احتضنت ثريا أو احتضنتنى مبتهجة منير وجهها وهى تخبرنى :

-أخيرا بقيت حرة ! حرة يا إيمان أنا اطلقت وبالجزمة أنا بريته من كل حاجة !

اختلطت فى نفسى الأحاسيس ولم أعد أعرف إن كان لى أن أهنئها أم أرثى لحالها لقد تعذبت أكثر مما تعذبتُ.

إنهمرت من عينى الدموع وأنا أربت على كتفيها قائلة

بحزن :

-مبروك يا ثريا !

***

أتمت أمل عامها الثانى وقد كانت تملأ دنياى مرحا، وكانت ثريا تسعد كتيرا عندما كانت تتلو عليها جملا من القرآن الكريم، بعد أن أصبحت قادرة على التحدث ببعض الجمل التى تسمعها، وكانت تتجول كثيرا من غرفة لغرفة.

كانت دهشتى التى لا أستطيع تفسيرها إطلالتها على الجدار، حيث الشق الذى يؤوى كلمات بهاء إن كان فى بيت أمى أو بيت حماتى.

هل حلت روح بهاء فى جسد الصغيرة كما حلت قبلا فى الماشية والبقرة التى كانت قاسية فى الانتقام من الحاج إسماعيل.

لم أكن لو كان الأمر بيدى أن يكون انتقامى بمثل ما كان، ولم يكن أبدا يدور بخلدى أن أتمنى لإبراهيم بمثل ما كان وقد كان أقسى على.

هل تكون يابهاء بنفس القسوة، أم أن البقرة انتفمت لنفسها حين كان جزاؤها الذبح.

أمام الشق حملت أمل أقربها علها تكون أقرب لحلمى الذى أنهاه الموت القاسى، حين اختار أبى وكان دنيتى وآخرتى ثم بهاء وقد كان الضوء الذى أرتجيه.

أولى الأسماء التى نطقت بها أمل كانت إسم أبى وقد سمعته مرارا من أمى، وكنت أود أن تنطق باسم بهاء الذى لم يكن أحد يعلم كم يسكننى إلا عايدة.

***

وكأنه كان اتفاق بين ثريا والأستاذ عبد العليم حين نظرا بمكر محبوب، لتبلغنى ثريا أنهما اتفقا على استئجار بيت بكامله على أطراف البلدة ليكون مدرسة ابتدائية، قد تكبر مع الزمن لتكون ابتدائية وإعدادية، تحت إدارة الأستاذ عبد العليم على أن تكون أشبه بشركة مساهمة.

كنت أعلم أن النجاح الذى حققناه قد جعل المال يتوفر فوق ماتوقعنا، حتى لم نكن نعرف فى أى المصارف يمكن صرفه.

لم يكن قد تغير فى حياتنا الكثير فكان ثلاثتنا يقنع بما كان به قانع، حتى أن الأستاذ عبد العليم رفض مرارا أن تكون له بدلة غير ما كانت وكنا إذا فاتحناه يرد ضاحكا :

-البدلة دى جلدى إنتم عاوزين على آخر العمر أغير جلدى!

تفاجأ الأستاذ عبد العليم عندما أتى أحد الخياطين لأخذ مقاسات بدلتين، وكنا نعلم أنه لن يذهب طواعية.

شىء وحيد تغير وهو أن أمى لم تكن مجبرة على العمل بالحقول أو بيوت الأثرياء، بينما كانت حماتى صامتة جل وقتها تكاد لا تخرج من غرفتها، ولم يكن من الصعب أن ألمح الدموع فى عينيها إلا حين يعود إبراهيم بين الحين والحين، وقد كان لا يأتى أسبوعيا كما كان مصطحبا من يخبرها أنها زوجة ثانية

***

بينما كنت فى غرفتى، جضر إبراهيم بعد غيبة، وقد تعود على المجيء ليلا بعد أن تسكن خطوات أهل القرية وكأنه لا يريد أن يعلم أحد إن جاء وإن راح، سمعت حماتي تخاطبه :

-يابنى إنت بتروح فين وعايش إزاى؟ هيا الست اللى جوه دى مش مراتك؟ والبنت اللى معاها مش بنتك يابنى؟

- الست اللى جوه دى عليها عفريت، كفاية إنها السبب فى

موت أبويا ،أبويا قبل مايموت قاللى إن البقرة نطحته لما ضرب الست دى أنا بقيت أخاف منها !

متهكمة أردفت حماتى :

-معاك حق يابنى ماهى الشياطين لازم تخاف من الملايكة ! طيب بنتك كبرت وبقت تمشى وتتكلم مش مفروض يابنى تشوف أبوها وتعرف إن لها أب؟

- البركة فيكى وفى أمها أنا مشغول فى حاجات أهم!

-أهم من بنتك ومراتك وأمك ؟ مشغول فى إيه؟ فى النسوان اللى كل أسبوع لك واحدة؟ ومين الراجل اللى جه هدد مراتك وقالها إنك كافر، وهددها إنها هتكون سبية هى وبنتها لو ما راحتش له، وقال إنك هالك طال الزمن أو قصر ؟

وقد بدأ الجزع والغضب فى نبرة صوته سأل إبراهيم :

-مين؟ إسمه إيه ؟

- أنا معرفش أنا لحقتها وهى غايبة عن الوعى، وأهل البلد طلعوا بالشوم عليه وعلى اللى معاه !

لم أكن أعرف لهذا الشيخ إسما حتى قال إبراهيم:

- أكيد بهلول النصاب مدعى الدين ثم أتبع كلماته بالآية

الكريمة (سيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون).

استغرقنى التفكير وأنا أعرف أن إبراهيم يعرف هذا البهلول ، لابد أنهم ترافقوا واختلفوا وجرى شريط الذكريات برأسى، هل كان بهلول من هؤلاء الذين كانوا يترددون على البيت حاملين الأعشاب، التى كان إبراهيم قد أعدها لوهم العلاج الذى كان يتلهف عليه البائسون من أغنياء وفقراء ؟

قفز إلى ذهنى وصف الرجل لحجرات البيت، وتفاصيلها، ثم ترديد المرافقين مهللين الله أكبر الله أكبر وكأن الرجل قد رأى ما رأى ببصيرته.

الخداع هو ما اتفق عليه الرجلان خداع من فقد الثقة فى العلم والطب تحت ضغط المرض، وخداع من بحث عن الله فسار فى درب الشيطان.

الشيطان كم أنت لعين أيها الشيطان! تأتينى من حيث لا أحسب حسابا ولا أراك.

انسحب شريط الفكر فنظرت جزعة لأمل، وكانت متيقظة تنظر إلي نظرة ظننت فيها الخوف والرهبة، القت فى قلبى كلمات الرجل عن السبى والعبودية.

احتضنت أمل وكأنى أخبئها بصدرى، وتمنيت أن تنفتح

ضلوعى كى لا يراها من يريد بها شرا، وكانت تنظر إلي صامتة وهى تكاد تسألنى ماذا يخيفك يا أمى؟ ونظرت إليها محدقة وأنا أردد فى نفسى ليس لى غيرك يا أمل فيما تبقى من حياتى.

ربما كانت إغماءة أو أنه شىء من الموت جعلنى أرى الشياطين وهى تتقاذف أمل بين يديها ضاحكة تلهو بينما كانت أمل تصرخ وتمد إليَّ ذراعيها.

كانت بعيدة لا تطالها يدى ولا تطالنى يديها، وأنا أصرخ ولا أسمع صوتى، أتلفت علّى أرى من الملائكة أحدهم، ولكن ليس إلا صراخ أمل ولهو الشياطين، رفعت رأسى لأرى الله عله يكون معنا وقد حجبت الشياطين كل مجال للرؤيا.

صحوت من موتى وأنا أقول :أين روحك يابهاء وقد وعدتنى أن لا تغادر ؟

ربما كانت روح بهاء هى من أيقظتنى لأتحسس أمل، وقد كانت ما تزال يقظة تتحسس وجهى وكأنها تخاطبنى أن اطمئنى يا أمى فأنا خلقت لأعيش.

***

جرى العمل على قدم وساق وقد تبارى أهل القرية فى المساعدة، كل وما يطيق لتجهيز المدرسة ودار الحضانة

الملحقة بها فى بيت أمى، وكانت ثريا تجرنى سعيدة لأرى حماسة من يعمل، بينما كان الأستاذ عبد العليم ممسكا على الدوام ورقة وقلما، يحسب ما تم وما هو منتظر إتمامه، وقد تركونى معظم الوقت مع الأطفال دارسى القرآن ومبادىء الحساب والقراءة والكتابة، إذ لم يكن من دارسى العلوم إلا نفر قليل فى الإجازة الصيفية.

كأن مخاوفى وذلك الكابوس الذى يشبه الموت قد طال حماتى حينما رأيت أعمال بوابات حديدية وشبابيك حديدية فى البيت.

تأملت الحديد وكأنه جدران لسجن لست أدرى، هل كان لتأمينى وتأمين أمل أم أنه الخوف الذى يدعو المرء لتمنيه خوفا من حرية تحتمل الضياع.

كنت أتأمل العمال وأنا أكاد أسألهم هل أنتم قادرون على تأمين الشارع وبيت أمى، والمدرسة التى لا بد لأمل يوما أن تكون فيها.

وقفت أمام الشق فى الجدار على أستدعى روح بهاء، توقفت أمام الجدار صامتة مستغرقة فى خوفى فأطل على بهاء ممسكا ذراع أبى حين خروجهما من المسجد.

لم يكن يبدو عليهما ضيق أو قلق، وكأن ما أنا فيه لم

يصل لعلمهما، أو أنهم فى دار ليس فيها من القلق والخوف شىء.

متجرأة للمرة الأولى جريت إليهما فاصطدم رأسى فى الجدار.

غادرت الجدار منهزمة مكسورة وقد أحسست أنى وحيدة حين منعنى الجدار.

***

بخبث محبوب اصطحبتنى ثريا وقد قرب موعد بدء الدراسة لأرى المدرسة التى أنشئت ليقع بصرى على اللافتة التى ثبتت حديثا(مدرسة الأمل الابتدائية)

أنستنى النشوة من اقتران اسم أمل بالمدرسة، و تمنيت أن يبقى ما عشت وما عاشت أمل، وإن كنت أظن أن ثريا هى الفاعل الحقيقى لكل ما حدث، فهى التى أتت بالأستاذ عبد العليم لتدريس العلوم، وقد تكون هى من أوحى له بفكرة المدرسة التى أصبحت حقيقة لا أمنية، وحتى لو كانت الفكرة فكرة الأستاذ عبد العليم فهى من وافقته بعد أن أتت به يوما.

أطلعتنى ثريا على أوراق الترخيص بالمدرسة، حيث علمت

أن لها مجلس إدارة منى ومن ثريا والأستاذ عبد العليم على أن يتولى إدارتها الأستاذ عبد العليم.

***

عند الاحتفال ببدء الدراسة، دعى له جميع أهل القرية وقد أعدت منصة للمتحدثين، يرقد خلفها مقعدين.

حمدت الله أنهما مقعدين لا ثلاثة، فأنا لا أجيد التحدث للجماهير، ولا أستطيع النظر للوجوه وقد كانت أقدامى هى أكثر ما رأيته منذ طفولتى.

لعل ثريا كانت تدرك ذلك وقد كانت بالجرأة التى لم أمتلكها يوما، حين تمردت على حياة الذل والعبودية باسم الزواج، واحتملت حتى حين سيقت لبيت الطاعة كرها.

امتلأت المقاعد وقد أجلستنى ثريا فى الصف الأول، فى منتصفه أمام المنصة، وأجلست على يمينى عايدة وظل المقعد على شمالى شاغرا.

مترقبة صعودها والأستاذ عبد العليم، وأنا أضع فى رأسى الكلمات التى يمكن أن تقولها ثريا فإذا بالأستاذ عبد العليم يخرج علينا متأبطا يد الدكتور إسلام.

تهللت روحى وكانت لا تقر وأنا أتمنى القفز على المنصة

للترحيب، ولم أكن أعلم أنه علم بأمر المدرسة أو أنه دعى إليها.

لعل عايدة هى من أخبرته وهى من دعته ! ولكن كيف وهى لا تفارقنى ولا أفارقها، وكأنا ولدنا ملتصقتين لا نفترق إلا حين تأوى كل منا الى دارها.

لم تستطع عينى مفارقة وجه الدكتور إسلام وقد أومأ لى مبتسما والسعادة فى وجهه ونور يشع من عينيه،

بمجرد جلوسهما على المنصة وقد تعلقت عيناى بالدكتور إسلام كانت ثريا قد أتت لتجلس على شمالى، فى ذلك المقعد الذى كان فارغا، تنظر كما أنظر ناحية الدكتور إسلام، وقد استغرقت فى تأمل وجهه، عل هذا النور كان حقيقة لا خيالا أحست به ثريا مثلما كنت أحسه.

استهل الأستاذ عبد العليم الكلمة:

بسم الله الرحمن الرحيم

سيداتى وسادتى الكرام أشكركم جميعا للطف حضوركم، تشاركونا هذا المشروع الذى كانت تتوق إليه بلدتنا الكريمة التى تستحق أن يأتى العلم اليها سهلا يسيرا، وأشكر لكم كل باسمه المساهمة الصادقة والمتحمسة فلقد

أبيتم أن يتقاضى أى منكم أجرا، وكنتم كمن يشيد بيته الذى يؤويه، فلقد تكلفتم الكثير وتكلفنا القليل، وكنا قد أعددنا الكثير، ولكنكم أبيتم إلا أن يكون المشروع مشروعكم، والحلم حلمكم وقد حققتموه ،أشكركم بما تحتمل كلمة الشكر من المعانى،وأشكر جهد هذا الفارس المجهول، الذى لولاه ما كان حلمكم يتحقق، مهما كان ما بذلتموه، فقد كان هو المحرك الحقيقى الذى ذلل لنا بصلاته ونفوذه وكرم أخلاقه، الدكتور إسلام فلقد سهر من أجله كما سهرتم، وعانى من وقته بين غدو ورواح كما عانيتم، حتى كانت كل الموافقات بين أيديكم، فلقد آمن بمشروعكم كما آمنتم وسر بإتمامه كما سررتم.

سيداتى وسادتى إن كان لهذا المشروع من أب، فلقد كانت ابنتكم الدكتورة إيمان هى الأب وهى الأم وهى الحاضنة، فمنذ أن جلست جلستها تعلم أطفالكم ما يجب أن يتعلموا، وأنا وإن كنت قد راهنت عليها كثيرا فلقد كانت أروع مما تخيلت، وإن كان لنا شرف المساعدة أنا والسيدة العظيمة ثريا، فما كانت مساعدتنا وأحلامنا لتكون لولاها الدكتورة إيمان.

لا يفوتنى أن أشكر الدكتورة عايدة التى أتت لنا بالدكتور إسلام حين كانت صحة الدكتورة إيمان تحتاجه، والتى أوصلت قلبنا بقلبه، وعشقنا بعشقه، والتى كانت السند

الذى لا يكل ولا يفتر، وهى تصطحب الدكتورة إيمان إن راحت وإن حضرت.

لا أطيل عليكم وأكرر شكرى لكم جميعا.

وإليكم الدكتور إسلام وهو يود أن يتحدث معكم.

انتقل الميكروفون إلى الدكتور إسلام وكنت ناظرة له محدقة، وإن كنت أختلس النظر لثريا وقد كانت مثلما كنت، لا تكاد عينيها تفارق وجه الدكتور إسلام.

أنصت الجميع للدكتور إسلام:

بسم الله الرحمن الرحيم

سيداتى وسادتى الكرام، إنه من بالغ سرورى ومحبتى، أن أشارككم فرحتكم اليوم، وقد حققتم ما يجب أن يتحقق بسواعدكم جميعا.

كانت المرة الأولى التى أحسست أنى رأيت الله حقيقة لا خيالا، حين زارتنى إبنتان من بناتكم فى مكتبى المتواضع، وقد كان اليوم الأول وربما المحاضرة الأولى، التى حضرتها إيمان برفقة عايدة، كنت أستمع لهما وكأنى أسمع الملائكة من فوق سماوات بعيدة ، لا أدرى لم كان هذا الإحساس، وقد ملكنى وجعلنى أراقب من بعيد، على أعلم السر فى هذا الإحساس،

شىء شد عقلى ووجدانى، وكأنى أصبحت صوفيا فى معبدهم.

وإذا ذكرت الملائكة فلابد من ذكر الشياطين، فليس هناك ملائكة دون شياطين، تهدم ما يُبنى، وتُعكر ما يصفو، وتُفسد ما يطيب.

كانت المرة الثانية التى أحسست بأنى أرى الله هذا اليوم، وقد كلل جهد إيمان بهذا النجاح بمعاونة الأوفياء المخلصين، وأخص بالذكر الأستاذ عبد العليم، العالم والمعلم، والسيدة العظيمة ثريا.

شىء لابد أن أقوله، أنكم سيداتى وسادتى بخير مادامت إيمان بخير، فهى الخير إن أردتم الخير، وهى سعادتكم إن سعدت، وشقاؤكم إن تتركوها نهبا للشياطين، كونوا حراسها كما تحرسون بيوتكم وأولادكم.

لم أدرِ لماذا جرت دموع الدكتور إسلام وتحشرج صوته، فآثر إنهاء كلمته بالشكر للجميع وللأستاذ عبد العليم وثريا.

بينما كنت مقيدة الأرجل لا أعلم من نشوة أو من مفاجأة، كانت ثريا قد قفزت الى حيث الدكتور إسلام تشد على يديه بينما تعلقت عيناها بعينيه وتعلقت عيناه بها.

***

بدأت الدراسة وكنت فى الفرقة الثالثة بالكلية بعد أن حصلت على تقدير إمتياز وشاركتنى عايدة نفس التقدير.

لم تختلف الوجوه التى أراها غير أن سارة لم أعد أراها.

كان ارتداء النقاب قد زاد حتى كان عدد المنتقبات يساوى أو يزيد كاشفات الشعر، مثل ما كنت عليه وكانت عايدة، كنت أنظر للمنقبات عل إحداهن تكون سارة، ولم أكن أتمنى لقاءها.

كان بعض الأساتذة قد أطلقوا اللحى، ولم يكن بينهم الدكتور إسلام فقد ظل كما كان بلحيته القصيرة التى تساوى شاربه.

التقينا الدكتور إسلام فى مكتبه فى اليوم الأول من الدراسة، وكان لدى كثير من مفردات الشكر والامتنان

ظلت تتردد فى رأسى، وكأنى أحاول أن أحفظ ما سوف أتلوه.

قابلنا الدكتور إسلام بود وحفاوة، فتبخر كل ما كنت أردده فى نفسى، وانكفأت عينى تنظر لقدمى، بينما كانت عايدة منطلقة اللسان والإحساس حين قالت ما كنت أود أن أقول.

وجه الدكتور إسلام حديثه لى وهو يقول :

-إزيك يا إيمان ؟

بصعوبة كان ردى :

-الحمد لله يا دكتور أشكرك على المجهود اللى انت عملته!

- يابنتى أنا معملتش حاجة، إنت اللى بتعملى كل حاجة، أنا يا دوب منظر فى خلفية الصورة وإنت كل الصورة ربنا يحميكى ويحرسك !

ثم لم يدعنى أرد حين سألنى كيف حال أمل ؟

تفتحت كل أزاهر الحياة وأنا أرى وجه أمل يطل على من شفتى الدكتور إسلام.

-الحمد لله بقت بتتكلم وتنطق جمل وحتى بقت تقول الدكتور إسلام !

-خلى بالك منها ودايما يا إيمان حطى عينك عليها !

حاجة تانيه عاوز أقولهالك !-

صمت قليلا ثم قال :

-سارة أفرجوا عنها هى والشيخ، وكتير من اللى كانوا معاه

من التنظيم.

- تنظيم ؟ تنظيم إيه؟

- كانو متهمين بتكوين تنظيم متطرف يسعى لقلب نظام الحكم ، ما علينا خلى بالك وبلاش تقربها منك.

لم أكن قد انشغلت قبل ذلك بالحكم أو قلب نظام الحكم، رغم ما كان يقع عليه بصرى أحيانا من لافتات الحائط التى تهاجم الحاكم والحكومة، أو التى تدعو لقيام الدولة الإسلامية.

كنت أرى أن الدولة إسلامية مادمت أنا مسلمة ومسلمون من حولى ومن أعرف.

استولى على فكرى حديث الدكتور إسلام عن الحكم وقلب نظام الحكم، وحديثه عن احتجاز سارة والشيخ وأتباعه، ثم إطلاق سراحهم جميعا، لأجدنى أمام لغز لا أفهمه، إقامة الحكم الإسلامى فى دولة مسلمة، وتذكرت حديث الشيخ الذى أصبحت أعرف اسمه عن الجاهلية التى نعيشها والإسلام الذى يدعيه، ويدعو له، ثم نظراته التى كادت تخترق ما تستره ثيابى، ثم حين أتى مهددا ومتوعدا لى ولابنتى بالسبى والمذلة، ولإبراهيم بالهلاك وحديثه عن كفر إبراهيم، ثم ما سمعته من إبراهيم وهو يحدث والدته عن

بهلول النصاب وقد كان يعرفه، وتراءى لى هذا المشهد الذى تركنا فى رعب أخرجنى وحماتى من بيتها لنلوذ ببيت أمى وقد تناثر ما تناثر، هل كان هذا من فعل بهلول؟ ثم اطمأن فى ذهنى أنه لا يمكن أن يكون الفعل فعل الشرطة كما كانت ترجح حماتى، وإلا لاستجوبونا وهذا لم يحدث.

لابد إذن أن من فعل هو بهلول أو أى من المتعاملين مع إبراهيم.

ولكن مالذى كان يخفيه إبراهيم وكانوا عنه يبحثون؟و ماذا يفعل إبراهيم وما سر غيابه؟ ثم آتيا متخفيا بصحبة النسوة اللاتى يدعى أنهن زوجاته.

إن كان فالرجل يعرف البيت ويعرف ربما أكثر مما نعرف، أسئلة ربما لو استوضحتها من الدكتور إسلام لأفادنى ،وكنت أستوضح أبى ما أعجز عن فهمه.

كان الدكتور إسلام سعيدا وهو يلقى علينا محاضرة عندما زرته وعايدة فى مكتبه الأنيق فى الكلية وكانت المحاضرة هذه المرة ليست فى الخلية الحيوانية حيث قال :

عندما تولى الرئيس السادات الحكم بعد وفاة عبد الناصر كان لديه هاجس من شعبية عبد الناصر الجارفة وكانت الجماهير لا ترضى عن حاكم إلا كما عبد الناصر وكان هذا

يهدد حكمه.

ولأنه لم يكن عبد الناصر، فقد تفتق ذهنه وذهن من معه على إطلاق من كرهوا عبد الناصر من مخابئهم، الأغنياء ذوو السلطة قبل عبد الناصر والذين انسحبت منهم السلطة، والأغنياء ذو المال الذين أضيروا فى أرضهم وأموالهم بفعل قرارات التأميم والإصلاح الزراعى، وكذلك الإخوان المسلمين الساعين للحكم مهما كانت الوسيلة، والذين اصطدموا بالثورة حين أصبح الحكم بعيدا عنهم وكانوا يظنون أنه قريب بعد إزاحة الملك.

ولأن الحديث فى الدين وتوسم الناس الخير فيمن يدعى الدين، عاطفة أقوى من كل العواطف، كان سلاح الدين أقوى الأسلحة لإطفاء شعبية عبد الناصر، ووضع قناع الدين على حكم من يحكم الآن.

لم يكتف السادات بإطلاقهم من محابسهم أو منافيهم بل أيضا أغدق عليهم وأفرد لهم الصحف والمجلات والراديو والتلفاز.

وكما كان للسادات طموحا فى تثبيت أركان حكمة، كانت جماعة الأخوان تسعى لنفوذ فقدته مع حكم عبد الناصر.

ولأن ادعاء الدين ليس حكرا على الإخوان، ظهرت

جماعات أخرى، منها من انشق عن الآخوان ومنهم من لا يُعرف بدايته، وكل جماعة تدعى أنها تسعى لحكم الإسلام، أو ما يسمونه الحكم بالشريعة والعجب أن كل فريق لا يؤمن بمنهج الفريق الآخر حتى لو كان الخطاب متشابه.

كان هذا الأمر يصب فى مصلحة السادات وأركان حكمه فهو لا يعنيه إلا اتفاقهم على وضع الحبر الأسود على ذكر عبد الناصر وتصويره كأنه الشيطان الذى سعى لهدم الدين وتدنيس المقدسات، كما أن اختلافهم يضعفهم فلا يكون هناك فريق قادر على انتزاع الحكم وكانت له الغلبة.

كل الجماعات كانت تدعمها أركان الدولة، وعلى الخطى كانت المخابرات الأجنبية من الغرب وأحيانا من الشرق تدعم جماعة أوأخرى.

كل عمليات القبض والاحتجاز ماهى إلا عمليات استخباراتية، يسعى منها الحاكم للوقوف على ما يكون من طموح للجماعات فى السيطرة على الحكم، سرعان ما يفرج عنهم مهما كانت التهم الموجهة إليهم بعدالحصول على المعلومات التى يتطلبها الحكم وثباته، ولأجل ذلك احتجز الشيخ ومن معه فى التنظيم وأفرج عنهم.

قد لا يدرى السادات ومن يشاركه الحكم أن خشيته من

عبد الناصر وذكراه، جعله كمن يربى الثعابين فى بيته، فلابد لشهوة الثعابين من اللدغ وإن شبعت.

ثم أنهى حديثه بابتسامة وهو يقول :

عرفتِ يا إيمان ليه اتقبض عليهم وليه تركوهم ؟

***

انتظم العمل بالمدرسة وكان الأستاذ عبد العليم يجمع بين تدريس العلوم وإدارة المدرسة، فلم يكن أبدا يرضى بترك العلوم حتى لو كان يحتمل فى الإدارة ما ينوء به كاهل الشاب الفتى.

لم تكن المدرسة تتقاضى أجرا محددا، بل كان تطوعيا يدفع القادر ما يقدر، ولا يطلب من غير القادر إلا مايقدر.

أتمت أمل عامين وبضع شهور، وكانت ثريا حريصة كل الحرص على اصطحابها لدروس القرآن تتلو عليها بعض الآيات القصيرة والجمل القرآنية وتطلب منها ترديدها ضاحكة ومازحة.

إزدادت أعداد الطلبة حتى أن بعضهم كان يأتى محولا من مدارس حكومية.

أصبحت ثريا هى المدرس والمشرف على الحضانة الملحقة فى بيت أمى، إذ كان التدريس فى المدرسة يحتاج فقط لخريجى كلية التربية، وقد كانت ثريا حاصلة على شهادة الثانوية العامة ثم اختطفها من أذلها ،وتخلى عنها أهلها حين طلبت إكمال دراستها الجامعية بعد أن تمردت على حياة العبودية،وكنت أساعدها بعد عودتى من الكلية إن فرغت من مراجعة محاضراتى،بينما كانت أمى وحماتى منشغلتين إما بأمل، أو بإطعامنا أنا وثريا والأستاذ عبد العليم وأمل، وكانت المائدة لا تمد إلا بحضورى رغم إلحاحى أن لا ينتظرونى فى وجبة الغداء التى كنت دائمة التأخير عنها.

***

أسبوع مر على بداية الدراسة حين اختلت بى ثريا وهى تخبرنى خجلة أنها تفكر فى استكمال دراستها الجامعية.

أسعدنى رغبة ثريا فى استكمال دراستها، سعادة ذكرتنى بالمرة الأولى التى ولجت فيها قدمى ساحات الجامعة.

احتضنت ثريا مبتهجة ومشجعة، بهجةُ قطعها تذكرى أن الدراسة قد بدأت فى الجامعة منذ أسبوع، ولابد لثريا أن تنتظر عاما آخر.

خاطبتها منبهة وعاتبة أنها لم تتقدم فى الموعد المحدد

لقبول الأوراق فابتسمت، ابتسامة فيها من الامتنان أكثر من كونها ابتسامة عابرة، وأخبرتنى أنها قد تقدمت بالفعل بأوراقها بمساعدة الدكتور إسلام، حين كان يزورنى فى مرضى، وقد قبلت أوراقها بكلية الآداب فى نفس الجامعة.

قلت فى نفسى وأنا أبارك لها ما فعلت، بهاؤك يادكتور إسلام يأبى إلا أن يغمر كل من يعرفك !

فى اليوم التالى كنت وعايدة قد ذهبنا لشراء ما يكفى وما يليق بجمال ثريا.

قبل أن نفاجىء ثريا بما أتينا به، فاجأتنا ثريا بسيدة من أهل القرية، مات عنها زوجها، وكانت خريجة كلية الآداب، عملت بالتدريس سنوات، قبل أن تتفرغ لزوجها وأولادها ، عندما توفى عنها زوجها وكبر أولادها، أصبح لديها الوقت لتتولى تدريس ما كنا ندرسه لأطفال الحضانة.

كانت السيدة بيضاء البشرة ممتلئة القوام، بغير سمنة مفرطة، جميلة الوجه تبعث على الارتياح إذا نظرت إليها. كانت تعتنى بوجهها دون إضافات.

ما كدنا نلقى التحية حتى كانت السيدة قافزة من على مقعدها تحتضننى بقوة وتكاد تقبل منى كل ما تطاله شفتيها وكنت بين يديها تقلب فى ما تشاء.

حين انفكت يديها من حولى ونظرت إلى وجهى كانت الدموع تسيل من عينيها مع سعادة تبدو فى وجهها لا تخطئها العين.

وكأن اليوم هو يوم الدموع حين فاجأتُ ثريا بما أتينا حاملين.

استمر الدمع فى عيون ثريا وهى ترتدى ما أتيناها به وشاركتنا أبله فضيلة وكان هذا اسمها الذى قدمته لنا ثريا.

كانت ثريا تتلألأ فى ثيابها الجديدة وقد زاد ضياؤها، حتى أنك لا تستطيع مفارقة اللوحة الرائعة ولم أكن أعرف كيف يجتمع القمر ببهائه والشمس بسطوعها ودفئها فى هذا الجسد الرائع.

كانت أبلة فضيلة فى اندهاشتها حين طلبت من ثريا أن لا تظهر بمثل ما تكون فى البلدة خوفا من عين حاسدة وهى تقول:

-إنت جميلة قوى يا ثريا يابنتى، الناس عينيها وحشة بلاش يشوفوكى كده اليومين دول على الأقل!

لترد ثريا:

-خليها على الله يا أبلة فضيلة ربنا هو الحارس!

كانت أبله فضيلة فى حماسة البدء حين وجدت أنها قد أتت معها بمجموعة قصص للأطفال تعلم الأطفال بطريقة غير معهودة ولكنها نالت إعجابنا جميعا حتى أنى اقترحت وليد اللحظة أن يكون للحضانة مكتبة لا تقل كتبها عن ضعف عدد الأطفال الدارسين ووعدت متحمسة أنى سآتى بها على دفعات لدى قدومى من الجامعة.

***

كان يوم سبت وقد مر ما يقرب من الشهر على بدء الدراسة حين طلبت منى حماتى فى أمر أقرب للرجاء أن أتخلف عن الكلية اليوم أو حتى أتأخر حتى ننجز مهمة فى المدينة لا بد من وجودى لإتمامها.

لم أشأ أن اسألها عن المهمة ولم تبادر بالإفصاح.

أقلتنا السيارة التى اعتدنا عليها صباحا للبندر وكانت تصحبنا عايدة التى رفضت مفارقتنا حتى ننجز ما أرادت حماتى على أن نستقل القطار للجامعة فور الانتهاء.

صحبتنا حماتى إلى شارع يبعد كثيرا عن محطة القطار كان يبدو من استقامته أنه الشارع الرئيسى للمدينة ، فقد كان مزدحما بالتجار ومحلات التجارة وكان الزحام شديدا وأعين القابعين والمارين معلقة علىّ حتى أنى كنت أتعثر فى

خطواتى من خجل.

أُدخلت إلى بيت عتيق كتب على بابه بخط قديم يكاد أن لا تظهر به بعض الحروف من قدم ومن صدأ اللوحة الحديدية.

كانت اللافتة مكتوب فيها الشهر العقارى والتوثيق.

لم أكن أعرف ماذا تعنى الكلمة وما هذا المكان.

نظر إلينا شاب فى الثلاثينات من عمره ثم جحظت عيناه وكأنها تكاد تخرج من وجهه ،كانت عينيه قد ثبتت على وجهى فى دهشة أربكتنى ،ثم انتفض من مقعده ليقول أى خدمة ؟

مالت على أذنه حماتى تهمس حتى لا أسمع حتى كان الشاب فى لهفة إنجاز ما تريد حماتى يتنقل من حجرة لحجرة حتى إذا انتهى طلب بطاقتى.

حين وقعت عيناه على إسمى المدون فى البطاقة زادت اندهاشته وتساءل بلهفة :

هو إنت الدكتورة إيمان صاحبة مدرسة الأمل ؟

ثم أتبع فى عجلة ليقول:

- أنا من العزبة اللى جنب بلدكم وابنى عندكم فى أولى

ابتدائية.

كنت أود أن أقول أن المدرسة ملك الأستاذ عبد العليم وثريا وأنا الشريك الثالث ولكنه لم يدعنى حين قال أن حماتى تبيعنى كل ما تملك ثم تساءل :

-إنت عارفة كده يا دكتورة ؟

لم أكن أدرى ما يحدث والآن بعد أن عرفت نظرت لحماتى في دهشة.

نظرت حماتى إلىَّ بحب أعرفه قائلة :

-يابنتى مش هلاقى حد أستأمنه إلا إنت وأنا حاسة إن مبقاش لى فى الدنيا كتير، دى فلوس أمل ومحدش هيحافظ عليها غيرك، يابنتى الحاج إسماعيل كتب لى كل حاجة قبل ما يموت، كان خايف من تصرفات إبراهيم، وأنا كمان مش شايفه إن إبراهيم هيكون أمين عليها، إنت بنتى يا إيمان مش مرات ابنى.

قالتها والدموع تجرى حتى ابتلت شفتاها فوجدتنى أرفع يديها وأمطرها تقبيلا.

كنت أعلم أن هذا المال أمانة عندى من حق أمل ومن حق من ينجبه إبراهيم، حتى لو كان من زوجة ثانية وقد

أعلمتها فبادلتنى تقبيلا بتقبيل.

قبل أن توقع حماتى، نظر إليها الشاب متسائلا:

-من واجبى أسألك إن كنت تقاضيتى الثمن؟

وكان يعلم أن لا ثمن.

ردت حماتى بسرعة وكأنها قد أعدت الإجابة قبل السؤال :

-آه يا حبيبى قبضته من زمان لو كان عندى قده عشر مرات مش خسارة فى إيمان.

ودعتنا حماتى ونحن نستقل القطار وهى توصينى بالحفاظ على الورقة قائلة :

-الورقة دى تحطيها بين جلدك ولحمك إوعى حد ياخدها منك حتى لو كان إبراهيم !

لم أجد أفضل من ثريا أحتفظ بالورقة لديها.

***

كانت ثريا ترافقنا صباحا ونعود ثلاثتنا مساءً تنتظرنا إن فرغت من محاضراتها قبلنا وننتظرها إن كنا قد انتهينا قبلها وكانت أبله فضيلة تتولى ما كانت تتولاه ثريا أغلب النهار.

كنت أعلم أن الأمر مرهق لأبلة فضيلة وكنت أخشى أن تكل تحت وطأة العمل الذى لا ينقطع فطلبت من ثريا البحث عمّن يمكن أن يساعد أبلة فضيلة.

عندما عرض الأمر على أبلة فضيلة نظرت باستنكار:

-إيه يابنات انتو زهقتو منى ولا إيه حد اشتكالكم أنا يا بنات بتسلى، والله أنا سعيدة جدا، وكمان مامتك وأمل ماليين عليا الدنيا، أكل وشاى والله مامتك هى اللى بتتعب مش أنا.

ثم ضاحكة قالت:

- ما تجيبى يا دكتورة لك أم تانية تساعدها، والله بتصعب على !

***

لم يمر غير أيام قليلة على انتظام ثريا فى الجامعة وكنا نسير فى ذلك الشارع الذى نقطعه ذهابا وإيابا من الكلية الى محطة القطار والذى كان به معمل الدكتور إسلام.

جذبتنا جذبا ثريا متلهفة للصعود لمقابلة الدكتور إسلام قائلة :

- وحشنى وعايزة أسلم عليه!

تحت إصرار ثريا صعدنا ثلاثتنا إلى معمل الدكتور إسلام.

كانت الممرضة فى الاستقبال منشغلة بحديث تليفونى طال، وكان يبدو أنه حديث غرامى أو موعد بمقابلة حبيب، فلم تكن تنتبه لوجودنا رغم أنها كانت ناظرة إلينا.

كادت أرجلنا تكل من وقفتنا فى انتظار انتهاء المكالمة ولكن ثريا غاضبة :

-إيه يابنت انت، مش فيه ناس واقفين قدامك !.

أنهت الممرضة المكالمة ثم ناظرة بضيق لثريا بتهكم :

-نعم، أفندم!

وكأنها لم تكن قد رأتنا، ارتبكت وهى تقول:

- أسفة أسفة جدا، والله ما خدت بالى يادكتورة إيمان معلش يا دكتورة عايدة!

وقبل أن نسأل عن الدكتور إسلام كانت قد أبلغتنا بعدم وجوده.

وجهت ثريا حديثها للممرضة قائلة :

-طيب لما يوصل قوليله ثريا سألت عليك.

منبهة ومؤكده:

- هتقوليله مين ؟ ثريا إوعي تنسى !

كانت ثريا فى رحلة السفر أو الرجوع تملأ الدنيا مرحا، وكان حلو حديثها يأسر كل من يسمعها ويراها، حتى أن بعضهم كان يرتب لسفره مع سفرنا ولمقعده قرب مقعدنا، حتى أن مفتش التذاكر فى القطار يكاد أن ينسى ما كلف به منتشيا بحديثها وخفة ظلها، فكان يطيل المكوث وكأن القطار ليس فيه إلانا.

تكررت كثيرا زيارتنا للدكتور إسلام رغم خشيتى وكنت أحب جلسته خوفا من أن يساء تفسير زيارتنا.

أصبح الدكتور إسلام أكثر تبسطا وأقل جدية مما كان، فكان يسعد كثيرا بحديث ثريا، وخفة ظلها بل وجرأتها وحكمتها أيضا إن كان فى الحديث ما يتطلب حكمة وحسن تصرف.

أصبحت الممرضة تتلهف لقاءها وتتحايل على إبقائنا بجوارها إن لم نجد الدكتور إسلام.

أوشكت أمل أن تتم عامها الثالث وكانت قد حفظت من

سور القرآن قصارها، وأصبحت تميز الصور التى أتت بها أبلة فضيلة وتميز الألوان، وكان الأستاذ عبد العليم قد اعتاد أن يصحبها واضعا اياها أمامه على الدراجة التى كان يذهب بها للمدرسة صباحا ويعود بها بعد الظهر ليسلمها لأبلة فضيلة، وكانت كلما تراني تسمعنى ما حفظت وما تعلمت سعيدة منتشية.

لم يكن إبراهيم قد عاد لشهور خلت ولم تكن أمه تنتظره فلقد تعودت غيابه، ولم يكن يؤنسها غير أمل حين تنتهى من دروس أبلة فضيلة، وأنا حين أرجع البيت ليلا لأقضى لها حاجتها فقد كنت أشفق عليها وقد تقدم سنها سريعا، وظهر الشحوب واضطراب أنفاسها، حتى أنها لم تعد قادرة على النوم إلا جالسة أو نصف جالسة، ولم يكن الخفير العجوز بقادر على تلبية كل ماتحتاج.

الفصل الثامن

كان العام ١٩٧٨وقد ازدادت أعداد الطالبات مابين نقاب وخمار وحجاب، وكانت اللافتات تغطى جدران الكلية مكتوب فيها(الحجاب قبل الحساب) وكانت عدوانية البعض على كاشفات الشعر تزداد ونراها أمامنا، مابين رش ماء النار على أجسادهن، أو إشعال ملابسهن من خلف، ولم تكن تجدى شكوى، بل لم تكن المعتدى عليها تلقى تعاطفا ممن تشتكى إليه، فتسابقت من لم تستجب لنداء الحجاب أن تخفى شعرها وتطيل ملابسها حتى لايبدو من سيقانها شىء.

كان لابد لى أنا وعايدة من ارتداء غطاء الشعر وإطالة ما يغطى السيقان ازدادت الخطب ومنشورات الحائط ما بين مكفر للحكم والحاكم والمنادى بالدولة الإسلامية، وبين من يصف الحاكم والحكم بالعمالة لأمريكا والصهيونية العالمية، والردة عن مبادىء ثورة يوليو.

كانت تتناثر فى أيدينا كتابات شتى، كثيرها عن الشهيد حسن البنا والشهيد الخالد عبد الناصر، ثم تلحقها كتابات تسب وتلعن أى منهما، حتى ظننت وظن البعض أن عبد الناصر هو من قتل حسن البنا، لولا أن وقع فى يدى كتيب

بعنوان التاريخ الأسود للإخوان المسلمين عرفت منه أن البنا قتل قبل الثورة وقبل عبد الناصر.

على استحياء بدأت تظهر منشورات تشيد وتمدح بما قالوا إنه ثورة فى إيران اجتمع الفرقاء على مدحها والدعاء لها بالنجاح.

كان الفريق الباكى على حسن البنا يصف الشاه بأنه عدو الإسلام الأول بينما كان الباكون على عبد الناصر يصفونه بالمتحالف مع إسرائيل والولايات المتحدة، والداعم لهم فى حروبهم ضد العرب.

عندما كنا نتهيأ لامتحانات نصف العام وكان قد أطل العام الجديد باردا برودة شهر يناير كانت احتفالات تعم أنحاء الجامعة، بل كانت الشوارع والمحلات تحتفل بخلع الشاه وانتصار الثورة فى إيران.

امتزجت الفرحة بغضب كل من أتى على ذكر الشاه، غضبٌ من السادات وقد كان الوحيد فى العالم الذى استقبل الشاه وآواه.

كانت المرة الأولى التى أسمع من يدعو لاتباع المذهب الشيعى والدعاء للإمام الخمينى والمطالبة بنصرة الحسين، حين كان أحد المعيدين يحدثنا عن الشيعة والتشيع مؤكدا

أنه الطريق الصحيح لفهم الدين الصحيح.

كان وقع ذكر الحسين محببا لنفسى منذ أن تخيلته منذ طفولتى وقد رسمت له فى ذهنى صورة هى الأقرب لصورة بهاء.

***

انتهت الدراسة فى المدارس وكنت مازلت أؤدى إمتحان آخر العام مطمئنة غير مضطربة.

فى اليوم الأخير من الامتحان وكنا فى انتظار ثريا حتى تنهى امتحان سنتها الأولى فى كلية الآداب اقترب صبى لم يجاوز العاشرة من عمره وأعطانى ورقة قائلا إقرأيها.

قبل أن أفك طيات الورقة كان الصبى قد ذاب وتبخر.

بيد مرتعشة مترقبة أزلت طياتها لأقرأ ما فيها.

كانت مكتوبة بخط ركيك ولغة مضطربة.

(انظرى يابنتى لقد ارتددت عن الإسلام زى ما ارتد زوجك قبل ذلك، أبيت أن تعيشى فى الحلال واخترتى أن تعيشى مع زوج كافر، واعتزلتى مجلسنا الذى يقربك إلى الله وذهبتى لمجلس هذا الفاسق الزنديق، الذى تحول من إجماع أهل

السنة والجماعة واختار مذهب الصفويين الضال، والذى سرق منا ما كنا نعده ليوم تعلو فيه كلمة الإسلام بالحكم الرشيد تحت راية الخلافة.

مش هقولك أكتر من اللى قاله النبى صلى الله عليه وسلم لكبير الروم أسلم تسلم.

لقد رتبنا لك زوجا يصحبك إلى الجنة بدلا من الفاسق الذى يقودك للجحيم

إن لم تعودى من الضلال فجزاؤك السبى كما أن جزاء إبراهيم القتل).

كانت الورقة بلا إمضاء وقد شاركتنى عايدة قراءتها جزعة خائفة كما جزعت وانتابنى القلق والخوف.

لفنا الصمت طويلا لم تتفتح شفتانا وإن كانت عايدة تنظر إلى نظرة المحب الذى يخاف على محبوبه، بينما انشغل ذهنى بأمل وكنت أضع احتمالات ان يخطفنى أحدهم، كيف تعيش ومن لها فى هذه الحياة وقد هرمت حماتى وهرمت أمى.

كان مجىء ثريا مرحة منير وجهها قد خفف من صمتنا وبادلناها الحديث ولم أكن أود إطلاعها على ما كتب فى الورقة التى ألقاها إلينا طفل واختفى.

قطعت ثريا حديثها حين نظرت إليَّ محدقة وهى تقول :

- إيه ؟ فيه إيه ؟ الامتحان كان صعب ؟

حدثتها عايدة عن الورقة وما تحوى.

كانت ضحكات ثريا وهى تحاول أن تزرع الطمأنينة فى نفسينا يبدو عليها التصنع والافتعال.

من أجل أن تخرجنا من أفكارنا صاحت بحماسة :

-هوا احنا مش هنزور الدكتور إسلام دا حنا ٣ أشهر مش هنشوفه ؟

***

فى معمل الدكتور إسلام انتحت ثريا جانبا به هامسة له بعض الكلمات تغير مابه من مرح وحبور إلى وجه جاد غاضب ثم أمرنى :

هات الورقة اللى معاكى دى وأنا هتصرف هيا الدنيا بقت سيبة ؟

ثم أردف: إنسى الورقة واللى فيها مش هيحصل حاجة ،بس من باب الاحتياط ماتمشيش لوحدك وبنتك خلى بالك منها خلى حد دايما عينه عليها!

***

احتفلت المدرسة بنتيجة امتحانات الفرق وكان لابد من حضورى وثريا والتلاميذ وذويهم مع الأستاذ عبد العليم.

وزعت الجوائز وشهادات التقدير على المتفوقين ومن حسنت أخلاقهم أثناء العام الدراسى.

قبل أن ينتهى الحفل فاجأنا الأستاذ عبد العليم بجائزة أسماها جائزة الجوائز للطفلة أمل.

كانت الجائزة دراجة بعجلات ثلاث.

أرجعتنى جائزة أمل التى لم تكن جائزة بالمعنى الحقيقى، فلم تكن تلميذة بالمدرسة ولكنها كانت هدية أهداها الأستاذ عبد العليم ، أرجعتنى ليوم تمنيت على أبى أن تكون جائزتى دراجة مثل دراجة الأستاذ عبد العليم ،حين كنت الأولى فى الشهادة الابتدائيه و تكرر طلبى عندما كنت الأولى فى الإعدادية.

كانت غبطتى بالدراجة كونها أتت ومن الأستاذ عبد العليم ،لا يساويها إلا غبطة أمل وهى تحاول اعتلاء الدراجة بلهف.

كانت كلمة الأستاذ عبد العليم وهو يرفع أمل ليجلسها مطمئنة فى الدراجة :

-العجلة دى عشان توصلى بسرعة يا أمل !

لست أدرى ما كان يقصده الأستاذ عبد العليم بالوصول السريع.

***

كان القلق على حماتى يزداد يوما بعد يوم وأنا أرى شحوبها وضعفها يزيد يوما بعد يوم.

حاولت اصطحابها لطبيب بالمدينة فأبت ربما كانت تعرف أنها لن تستطيع.

حاولت الاستعانة بثريا ربما نكون قادرتين على مساعدتها.

حين جاء ذكر الطبيب كانت ثريا قد صاحت :

الدكتور إسلام يتصرف ! -

لم يكن قد خطر ببالى أن أحتفظ برقم تليفون الدكتور إسلام أو حتى من لديه فى البلدة تليفون.

جاء الدكتور إسلام ومعه طبيبان قبل أن ينتهى النهار فحصاها، و سحب الدكتور إسلام من دمها لعمل التحاليل التى أوصى بها الأطباء.

وقبل أن ينتصف النهار فى اليوم التالى كان الدكتور إسلام

قد أتى ليبلغنا بخطورة ما كانت تعانيه وإن قال :

-مفيش حاجة كتير على ربنا، ربنا يشفيها بس لو تقدرى تتصلى بابنها يكون جنبها اليومين دول!

كانت الأيام تمر بطيئة كئيبة وأنا أرى حالتها تسوء يوما بعد يوم فنذرت نفسى لخدمتها ولم أكن أبرح البيت بينما تولت ثريا قضاء حاجاتنا نهارا، والسهر لمساعدتى فى خدمتها ليلا بعد أن شاركتنا الإقامة فى بيت حماتى.

لم يمر شهر من الإجازة الصيفية وقد اختارها الله إلى جواره كما اختار من قبلها بسنوات أبى وبهاء.

كان الأستاذ عبد العليم هو من يتقبل عزاءها من الرجال، وكنت أنا وعايدة وثريا من يتقبل عزاءها من النساء فلم يكن لها من أهل أو أقارب، وقد تزوجها الحاج إسماعيل من بلدة فى الصعيد لم يكن لنا علم بها ولم يكن إبراهيم قد علم بمرضها أو وفاتها.

لم أكن أعلم من أخبر الدكتور إسلام بوفاتها حين أتى معزيا فى اليوم الثانى للوفاة.

كان حزنى بفراق حماتى كما كان حزنى على فراق أبى، وقد كان وجودها هو ما جعلنى أصبر على العيش راضية بزوج

أخافه وأمقته، والآن قد انكشف ظهرى لسياط إبراهيم وقد كانت طويلا الدرع الذى يقينى.

كنت لا أتمنى وأحسب حسابا لعودته.

كان وجود ثريا معى فى البيت الذى أصبح بيتى يريحنى وينسينى ولو قليلا، ماكنت أخافه وأخشاه.

كثر تردد الدكنور إسلام علينا، وكأن بيوتنا قد تجاورت ، وكانت ثريا تعلم بمجيئه قبل أن يأتى محملا بالهدايا لأمل ومصطحبا الأستاذ عبد العليم.

***

بدأت الدراسة فى المرحلة الأخيرة من دراسة الطب، وكانت الدراسة فى المرحلة النهائية هى دراسة الطب فى تقسيماته المعروفة بعد أن كانت فى السنوات الأربع السابقة ماهى إلا أساسيات أو مقدمات لفهم الأمراض والعلل، فى هذه المرحلة كانت الدراسة مقسمة إلى سبعة أقسام وكانت مدة المرحلة سنتين ونصف السنة، ندرس فى السنة الأولى أمراض وجراحات النساء والولادة والأمراض المتوطنة والطب الشرعى بالإضافة لطب وجراحة الأنف والأذن وجراحات العيون، يتلوها فى السنة الأخيرة الجراحات بأنواعها والأمراض الباطنية بأنواعها وطب الأطفال.

كنت قد انتقلت من مرحلة التأمل فى ما خلق الله وأسراره التى لا تحصى، إلى مرحلة التعامل الحقيقى مع المرض والمرضى.

كنا فى الثلث الأخير من العام١٩٧٩ وكان قد تغير كثيرا فى ماتبدو عليه الطالبات، فلم تكد تلمح كاشفات الشعر أو جزء من السيقان، أو حتى من لجأت بعد المضايقات فى الكلية أو فى الشوارع إلى البنطلونات التى تدارى السيقان، فتحول كثير من البنات والسيدات إلى الملابس الفضفاضة، وازداد الحجاب الذى يخفى الوجه جميعه، والنقاب الذى لا يظهر غير العينين، وكثر ارتداء القفازات كى لا تظهر حتى الكفين.

كانت ثريا كثيرة الضيق وقد كانت تحلم بأن تحيا حياة حلمت بها كثيرا وهى تشاهد فى التلفاز ما تبدو عليه طالبات الجامعة .

كانت ثريا تردد فى غضب أنه سجن اضطرت له خوفا من عدوان من لا تعرفهم فى الشارع أو فى الكلية.

لم تعد الطالبات المحجبات والمنقبات ، تعتنى بوجه أو شعر وكان هذا يريح البعض حتى أن منهن من كانت لا تهتم بغسل الوجه صباحاً.

كنا ثلاثتنا قد ارتدين الفضفاض والخمار الذى يغطى

الشعر ويظهر الوجه والكفين.

كان الحديث عن الثورة الإيرانية مازال يشغل الحوائط ، وإن كان الحماس لها قد قل كثيرا وازدادت المقالات والشعارات التى تكفر الشيعة وترى أنهم كفار يسبون الصحابة وزوجات الرسول، فتحولت حماسة الكثيرين من الترحيب إلى الحسرة والندم ، بينما ازداد من كانوا يجاهرون باعتناقهم المذهب الشيعى.

قبل أن ينتهى العام بأيام كان الحديث قد اختفى وصار الحديث يملأ كل الحوائط، يحث على الجهاد ضد الغزو السوفيتى لأفغانستان، فقد كان كما وصفته الخطب والمقالات والشعارات، غزو كافر لدولة مسلمة وكثر الحديث عن المجازر وعمليات الإبادة للمسلمين.

كنت لولا أمل وكبر أمى متمنية السفر للجهاد تحت حماسة ما كنت أسمع وأقرأ.

فى جلسة فى معمل الدكتور إسلام و كنا قد عدنا إليه تحت إلحاح ثريا التى كانت تبدو وكأنها متيمة به ،جاء ذكر الجهاد والسفر لأفغانستان.

كان رد الدكتور إسلام ضحكة طويلة أتبعها :

-إنت هتفضلى هبلة لإمتى اللى رايح يجاهد فى أفغانستان فى الحقبقة رايح يحارب لمجد أمريكا، اللى هيه مش مسلمة كمان ، الحرب الحقيقية بين الاتحاد السوفيتى وأمريكا، ودى حرب مش هتنتهى لكن وقودها هما المسلمين من الطرفين، وأصحاب المصالح يحمسوا الناس وكأنهم فى فرح بينقطوا فيه، زى النقوط اللى فى أفراح بلدكم ، بس النقوط هنا بأرواح السذج والمخدوعين.

ثم أتبع:

الجهاد الحقيقى هوا اللى إنت بتعمليه يا إيمان خلى جهادك عشان بنتك والعلم اللى إنت قطعتى فيه شوط كبير ولسه قدامك فيه كتير.

كانت كلمات الدكتور إسلام كفيلة أن تنسينى أمر السفر والجهاد فى أفغانستان.

***

إنزاح اللون الأسود من رأسى واكتست الدنيا بلون أرجوانىٍّ جميل حين حدثنى الأستاذ عبد العليم برغبة الدكتور إسلام فى الزواج من ثريا.

لم أكن أعلم أو تعلم عايدة أن الدكتور إسلام لم يتزوج

إلى اليوم، ولم يخطربالنا أبدا سؤاله.

كانت أضواء العرس تتلألأ فى رأسى مختلفة الألوان بتنغم يشابه الألوان التى انتظم بها وجه ثريا، وتراقصت أمامى صورة ثريا فى ثوبها الأبيض، وصورة الدكتور إسلام بوسامته وابتسامته فى بدلة العرس ممسكا يدها ناظرا متأملا عينيها.

قد تكون دقائق معدودة حين زارنى الدكتور إسلام ممسكا يد ثريا والسعادة تبدو على الوجوه، سعادة لا تماثلها غير سعادتى وقد عشت سنوات منبهرة بثريا وبالدكتور إسلام.

كان لدى إحساس أنها أكبر مكافأة كافأنى بها الله بعدما كافأنى بأمل، وعطف وحنان حماتى، بعد أن حرمنى من أبى وبهاء الذى مازلت أحج إلى رسائله كلما أحسست بخوف أو ضيق.

تعانقنا طويلا حتى لم أرغب فى مغادرة جسدها وأنا أردد :

-مبروك! مبروك يا ثريا، والله لو لفيتى الدنيا كلها عشان تلاقى أفضل من الدكتور إسلام ما تلاقى، ولو لف الدكتور إسلام ما يلاقى زيك إنتم مخلوقين لبعض.

بدت السعادة على الدكتور إسلام وقد ازداد بهاءً على بهائه وهو يقول :

-إحنا لسه جايين من عند أهل ثريا وكان لابد أن أخطبها من أهلها، بس أعمل إيه فى صاحبتك يا إيمان وهى بتشترط على اننا نعيش هنا فى بلدكم، مش عاوزه تسيبك ياستى ولا تسيب أمل، كأنها شاركتك فيها

ثم اتسعت ابتسامته وهو يقول:

- وأنا كمان معنديش مانع بالعكس هكون سعيد إني أعيش فى البلد اللى فيها إيمان وعايدة والأستاذ عبد العليم وطبعا حبيبتى ثريا.

***

كنا فى أوائل العام ١٩٨٠ وقد ظلت ثريا بجانبى تسكن معى، وقد انشغلت بالبحث عن بيت يناسب الدكتور إسلام ليشتريه ولوازم عرس وحياة، وقد أبت أن تفارقنى لبيت أهلها بعد الصلح والمودة.

كانت ثريا قد تعلقت بأمل وتعلقت بها أمل، حتى أن أمل كانت تسألنى عنها بإلحاح ما غابت عنها، وتجزع ثريا إن غابت أمل عن عينيها.

كانت أمل قد تعلمت قراءة الحروف وكتابتها، وقراءة بعض المفردات مسترشدة بالصور التى كانت تظهرها لها أبله

فضيلة.

كان أشد ما يسعد أمل أن تلهو بالدراجة التى أهداها الأستاذ عبد العليم.

***

وكأن السعادة لابد أن تفارق، فى ليلة شديدة البرودة من شهر يناير وكنا أنا وثريا نطبب أمل بعد أن تعثرت بها الدراجة وأسقطتها حتى أصيبت بجرح فى شفتيها، دق باب البيت دقا عنيفا انقبض له قلبى وتسمرت عينا ثريا ناحية الباب منتظرة أن يفتحه الخفير العجوز، الذى ظل حارسا لنا بعد وفاة حماتى.

سمعنا صوت إبراهيم وهو يعنف الرجل على تأخره.

كنت أظنه قد أتى ومعه من يسميها زوجة ثانية ولكنه كان وحيدا.

إندفع إبراهيم نحو الغرفة التى كانت تبيت فيها أمه سائلا الخفير:

-أمى فين ؟

بعد تردد ولعثمه وكأنه كان يخشاه قال الخفير:

-أمك تعيش إنت من أربع شهور كنت فين يابنى أمك ماتت ونفسها تشوفك.

صمت إبراهيم لحظة ثم سأل الخفير:

- مين هنا؟-

-هنا الدكتورة إيمان والأبلة ثريا وبنتك ؟

- دكتورة إيمان مين دى؟

- زوجتك يابنى إنت ماتعرفش إنها دكتورة.

-إيمان دى أنا مطلقها من زمان من بعد أبويا ما مات ؟

طلقتها إزاى يابنى وهى كانت عارفة؟ وأمك الله يرحمها كانت عارفة ؟-

-مش لازم تكون عارفة أنا مطلقها بينى وبين نفسى والشرع لا يلزمنى بإعلانه، وعدّتها كمان خلصت من سنين،ملهاش حق تعيش فى البيت أصلا إلا خدامة لأمى، وأمى ماتت مبقاش يلزمنا خدامين.

-والله يابنى ماحد بقى عارف مين اللى مفروض يبقى خدام، ومين اللى يبقى سيد، أستأذنك يابنى مبقاش ليه لزوم قاعدتى فى البيت.

كنا منصتين فى دهشة للحديث وكنت أحسب حسابا لما سيأتى، خائفة مرتعدة بينما كان الغضب قد بدا على وجه ثريا، غضب لم أره على وجهها قبل ذلك، حتى حين جرت جرا لبيت الطاعة وهروبها بعد ساعات.

كانت ثريا وكأنها قد أعدت العدة لما سيأتى حين اقتحم إبراهيم الحجرة التى كنا بها قابعين.

حين وقعت عينا إبراهيم على ثريا صمت وكأنه قد أصابه الخرس ولن يتكلم، ناظراً إلى وجهها وجسدها وكأنى وأمل لا وجود لنا.

كانت عيناه قد ذكرتنى بالشيخ المسمى بهلول حين نظر إلى جسدى وكأنه يخترق ما أرتديه.

قطعت ثريا الصمت حين قالت :

-نعم يا أستاذ إبراهيم عاوز إيه؟

تماسك إبراهيم وهو يبتلع ما علا لسانه :

-إنتم هنا ليه؟ يلا إخلوا البيت! أنا هبيعه، مبقاش يلزمنى حاجة هنا، تخرجوا دلوقت من غير تأخير!

- بس يا أستاذ إبراهيم اللى انت ما تعرفوش إن البيت ده

بيت الدكتورة إيمان، أشترته من أمك قبل ما تموت، والمرحومة سجلته فى الشهر العقارى، ومش البيت بس، كل اللى كانت تملكه المرحومة اشترته الدكتورة إيمان ؟

مقهقها بسخرية :

-هى أمى كانت تملك حاجة عشان تبيعها، كل حاجة كانت بتاعة أبويا وأنا الوريث الوحيد لأبويا.

ضاحكة بسخرية ردت ثريا :

-اللى انت ماتعرفوش يا أستاذ إبراهيم إن أبوك الله يرحمه كان بايع كل حاجة للمرحومة قبل ما يموت.

- تدخلت فى الحديث والخوف يتملكنى قائلة :

-وريله يا ثريا العقود وختم الشهر العقارى !

ضاحكة ثريا ردت :

-إنت هبله يا إيمان عقود إيه اللى أوريهاله، ماهو ياخدها يقطعها، العقود ما تتقدمش غير للمحكمة لو حب يشكك فيها ويشتكى.

كنت أود الحديث لأخبره أنى أحتفظ لأولاده من زوجة ثانية إن كان قد أنجب، لولا دقات شديدة ومتعجلة بالباب

جعلت إبراهيم يقفر قفزا إلى سطح البيت وهو يهدد أنى لن أهنأ بما لدى أو أهنأ بابنتى.

كان الخفير قد أسرع لأمى وصاح مناديا جيرانى.

أتى كل من سمع النداء يظنون أن لصا اقتحم البيت بعدما نادى الخفير (الحقوا الدكتورة إيمان) الراجل هيموتها !

تفرق المجتمعون فى مجموعات تفتش كل البيت واعتلى بعضهم سطح المنزل ولكن إبراهيم كان قد تبخر.

كان إبراهيم يرتدى على رأسه عمامة كبيرة بيضاء لم أرها من قبل وقد سقطت منه حين هروبه قفزا من سطح المنزل.

هى المرة الأولى التى ترى فيها أمل أباها وقد انزوت على صدرى برعب ناظرة بطرف عينها.

عندما انقشع وجه إبراهيم من الغرفة أطلقت أمل كل ما اختزنت من صراخ، ولم يجد محاولتى وثريا طمأنتها.

عبثا مع الرعب الذى كان يسكننى والرعب الذى أحسته ثريا محاولة تهدئة أمل وقد أخذ الصراخ منها كل قوة حتى غلبها الإعياء.

كان أول ما نطقت ثريا :

-إيه التهور اللى أنا كنت فيه ده! دا كان ممكن يقتلنا يا إيمان لولا الناس اللى جت!

-والله يا ثريا أنا كنت عاوزة أقول له على وعدى للمرحومة بأن حق أولاده محفوظ لو كان له أولاد من زوجة تانية لكن خير الحمد لله !

دقائق و قد عادت أمل لصراخها وهى تصيح الشيطان يا ماما، الشيطان هيموتك ويموتنى.

اختفت ابتسامة ثريا وبهجتها التى كانت تلازمها وقد استبدلت بصمت وشرود.

***

فى الصباح كان الأستاذ عبد العليم قد أتى بعد أن علم الجميع بما حدث وكانت المرة الأولى التى تعرف أمى أن حماتى قد باعتنى كل ما تملك قبل وفاتها، وعلم الجميع بأمر الطلاق الذى كان منذ سنوات ولم يعلم به أحد.

بعدما علم الأستاذ عبد العليم بأمر الطلاق قال:

-الحمد لله يابنتى إنت صبرتى كتير، بس الطلاق ده لازم يكون قانونى، لأن إبراهيم ممكن ينكره فى أى لحظة، ومعلش يا بنتى إبراهيم كده ممكن يكون له مصلحة فى موتك، لأنه

هيبقى تقريبا الوريث الوحيد ويكون كمان وصى على أمل، لابد من محام يرفع قضية لتثبيت الطلاق.

كان الأستاذ عبد العليم قد أتى بشاب قوى البنية مفتول العضلات ليتولى حراسة البيت من الخارج ليلا وقد ظل الخفير العجوز كما كان فى حجرته القريبة من الباب.

لأيام لم تكن أى من عايدة أو ثريا متحمستين للذهاب للجامعة وقد انضمت عايدة لرفقتنا نهارا بينما انتقلت أمى للمبيت ليلا، فكانت لابد أن تقوم على طلبات أبلة فضيلة نهارا.

كنت أستحث ثريا على معاونة أبلة فضيلة ولكنها كانت عنيدة فى مرافقتى، حتى أنها كانت تنادينى إذا أطلت البقاء فى دورة المياه لتطمئن نفسها بوجودى.

تسرب القلق الى الدكتور إسلام، حتى أنه لم يعد يتحدث فى أمر البحث عن بيت أو حتى الحديث فى زواج كانا يستعجلانه.

لم تعد أمل تذهب لأبلة فضيلة فى بيت أمى وكانت شاردة الذهن خائفة ما أفاقت من نوم قلقة فى نومها وتكرر صراخها وهى تقول :الشيطان ياماما ولم تكن تعلم أن ماتراه شيطانا هو فى الحقيقة أباها.

مرت إجازة نصف العام ولم نكن مجبرين على الذهاب للجامعة ولم يكن الأستاذ عبد العليم مجبرا على التواجد فى المدرسة معظم النهار إن لم يكن كله.

فى الليلة التى كان صبحها رجوع الطلبة لمدارسهم، وقد انتصف الليل، كان هرج ومرج وصراخ وعويل ملأ الدنيا فى الخارج جعلنا نندفع للباب لنرى ما يحدث.

زاد الصياح كما لو أن أهل القرية جميعا ينادون فى جزع (المدرسة بتتحرق)وكان الكل يعدو ناحية المدرسة.

كنا نعدو كما يعدوا الجميع وقد كان الناس مابين حامل للأوانى وحامل للجرار.

أتت النار على المدرسة وكثير مما حولها من بيوت.

عدنا عدوا عندما تذكرت أمل وقد تركناها نائمة.

لم تكن أمل فى البيت وكان الخفير العجوز ذبيحا بصحن الدار والدراجة محطمة.

***

انقطع صوت إيمان ولم أعد أحس أنفاسها حتى ظننت أنها قد فارقت الحياة لولا أن عينيها كانتا محدقتين فى سقف الغرفة فى نفس المستشفى الذى آواها مرتين من بطش إبراهيم وأبيه وكأنها تبحث عن الله ويمنعها سقف الحجرة.

حين زرتها لمهمة جمع المعلومات بحكم كونى ضابطا بجهاز أمن الدولة كانت فى حالة شلل كامل شخصه الأطباء على أنه شلل هستيرى من هول الصدمة وقد أقفل البيت بعد أن غابت أبلة فضيلة ولم يعد هناك من يحفظ القرآن أو يتعلم مبادىء العلم.

كانت ثريا وعايدة يرافقانها وقد توفيت والدتها من هول الصدمة حين داهمتها سكتة قلبية.

كنت أتمنى أن أنقل اليها الجدر التى آوت خطابات بهاء.

عندما ذهبت الى معمل الدكتور إسلام وجدته مغلقا وقد وضعت على الباب لافتة كتب فيها أن الدكتور إسلام قد سافر للبحث عن أمل.

عندما بحثت عن الأستاذ عبد العليم علمت أنه قد ذهب للبحث عن أمل.

كنت أعلم أن إبراهيم يعيش فى الجبال وفى الصحراوات

البعيدة مع أناس انتهجوا نهج التكفير، هربا من فشل وضياع إن كان فى مالٍ أو دراسةٍ أو حتى فى العلاقات العاطفية.

كان إبراهيم مطلوبا فى قضايا قتل وسرقات كثير من محلات الذهب، المملوكة للأقباط والمسلمين على حد سواء، قبل أن ينشق وينشىء تنظيما آخر سارقا الأسلحة والأموال ممن انشق عنهم ،ثم تحوله للمذهب الشيعى حين كانت الأموال قد بدأت فى التدفق من إيران.

بحثنا عن بهلول فلم نجد له أثرا وقد انحصر الشك فيه وفى إبراهيم.

لم أعرف كيف للدكتور إسلام والأستاذ عبد العليم أن يعثروا على أمل، وقد كنت أحسست بالعجز عن الإلمام بالخيوط التى نتبعها.

تقدمت باستقالتى وكلى حسرة وندم أنى وقد روعت المئات، لم أكن قادرا على حماية أمل أو إعادتها بعد أن هاجرت الشياطين متجاوزة الحدود الى الشرق.

تمت ومازال البحث جاريا عن أمل

السيرة الذاتية

سليمان عوض سليمان

الميلاد : ١٩٥٥/٨/١ فى قرية نوب طريف التابعة لمركز السنبلاوين محافظة الدقهلية

حصل على الثانوية العامة فى العام ١٩٧٣

حصل على بكالوريوس الطب والجراحة فى العام ١٩٧٩

حصل على ماجستير فى جراحة المسالك البولية فى العام ١٩٨٧بعد أن تزوج بسنة واحدة

بدأت اهتمامه بالأدب فى سن مبكرة وهو مازال بالمرحلة الابتدائية

لم تكن هناك رواية تنشر فى سلسلة أخبار اليوم أو سلسلة اقرأ لم يقرأها وهو مازال فى المرحلة الإعدادية والثانوية وكذلك الروايات العالمية

قرأ كل ما كتب أدباء هذا العصر نجيب محفوظ ، محمد عبد الحليم عبد الله ، يوسف ادريس ، محمد عبد القادر المازنى ، فتحى غانم، عبد الحميد جودة السحار،احسان عبد القدوس ، طه حسين ، العقاد،محمود تيمور، أحمد فؤاد

تيمور بالإضافة لأشعار شوقى وحافظ ابراهيم ،ابراهيم ناجى ،محمود حسن اسماعيل ،على محمود طه ،صلاح عبد الصبور ، أمل دنقل ومن العراق السياب والبياتى وناظك الملائكة ومن لبنان الأخطل الصغير ونزار قبانى وشعراء المهجر وغيرهم الكثير كانت أولى محاولاته فى القصة القصيرة فى السنة الأولى الثانوية عن قصة أخ يعيش مع أخته فى بيت واحد بعد أن توفى والداهم لينصرف عنها بلهوه وملذاته ولا يعود اليها الا بعد الفجر يوميا ليفاجأ عند عودته فى يوم من الأيام يجدها مقتولة فى بيتها ويلقى عليه القبض بتهمة قتل أخته ليبدأ السؤال هل حقا هو قاتلها ؟

فى الصف الثانى الثانوى كاد أن يلتحق بالقسم الأدبى لشغفه بالأدب والفلسفة وعلم النفس .

مع التحاقه بكلية الطب كان شغفا يزداد بقراءة الشعر ودراسة الأوزان والقوافى ليكتب الشعر الذى ظل فى الأدراج لم ينشر الا حينما وقع فى يد صديق فى العام ٢٠٠٨ ليتولى طباعته ونشره

حين عرض ما كتبه من قصائد على رئيس قسم اللغة العربية فى كلية التربية جامعة المنصورة الأستاذ الدكتور عبده عبد العزيز قلقيلة فى سبعينات القرن الماضى

كتب فى مقدمة الكشكول الذى يحوى الأشعار (فى هذا اليوم شاهدت ميلاد شاعر طويل النفس موهوب يبشر ب على محمود طه أروع ،إن شاء الله، هو الإبن العزيزالدكتور الطبيب سليمان عوض وأكون سعيدا بلقائه فى أى وقت)

دكتور /عبده عبد العزيز قلقيلة

رئيس قسم اللغة العربيةو أستاذ النقد الأدبى

كلية التربية جامعة المنصورة ١٩٧٨/٢/١٤

كان انشغالة بالمرضى والعمل كطبيب قد ابتعد به عن الشعر والأدب كتابة وان لم يبتعد عنه قراءة الى أن وصل الى سن الإحالة للمعاش.

من كتاباته :

*-ديوان "قلب وناى" صدر فى العام ٢٠٠٨

*-رواية "أمنية" صدرت فى أوائل العام ٢٠١٧

*رواية "حلم عفت الصياد" فى أواخر العام ٢٠١٧

رواية "احتراق الفراشات "٢٠١٩.